أخفقت بعض دراسات فقه اللغة المقارنة حين تناولته بنَفَسٍ عرقي. ..لا يكفي أن تكون الإجابة بذكر خصائص العربية مالم تكن هذه الخصائص مؤكدًا فيها أنّها لا توجد في اللغات الأخرى .

... و لكن إذا ذهبنا إلى القول بعدم وجود لغة هي أم اللغات فإننا نعلم أنَّ الله ـ سبحانه ـ زكَّى اللسان العربي لهذا فمن المقطوع به أنه سيكون أفضلَها وإن شرِكْته هذه الألسنة في الأسبقية والقدم؛فليس التفاضل مقصورًا على نشأة اللسان.

نظرا ت في سر العربية

تأليف أبي سهيل

عمربن عبد الله العُمري

{فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} (٦٥) سورة الكهف

ربي آتني رحمة من عندك وعلمني من لدنك علما

والعلماء حول حدوث اللغة بين قائل بالتوقيف وقائل بالمواضعة، وقد رأيت أَبُا إِسْحَاق الإسفرائيني رحمه الله يتوسط المذهبين حين قال:(أَن القَدْر الَّذِي يَدْعُو بِهِ الإنسانُ غيرَه إِلَى التَّوَاضُع يثبت توقيفاً، وَمَا عدا ذَلِك يجوز أَن يثبت بِكُل وَاحِد من الطَّرِيقَيْنِ)

وهذا مذهب صحيح وجارٍ على سنن الفطرة إذ لا يمكن التواضع إلا بلغةٍ تمكِّن الناس من التواضع على إحداث مسميات لما حولهم؛ فكيف يتواضع قومٌ على أنَّ هذا باب وهذا جبل وهذا بحر من غير لغة توقيفية إلهامية من الله كانوا يتحدثون بها ، فالتواضع في إحداث المسميات يشبه تواضع الصم البكم من البشر على وضع رموز يصلون بها إلى حاجاتهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الحمد لله العظيم الذي لازلة مع تسديده ولاجهالة مع فتحه وتوفيقه والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله محمد وعلى آله وصحبه. أجمعين. وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ربي آتني رحمة من عندك وعلمني من لدنك علما،اللهم افتح لي فتحًا مبينا،وارزقني دقة الفهم وسلامة المسلك، ونفاذ الحس ونور البصيرة واحفظني من مزلة الهوى وخَطَراتِ العُجْب.

أمّا بعد فنحن نؤمن أنّ القرآن العظيم أعظم الكتب المنزلة ، وهذا الإيمان لايدعونا إلى التزهيد أو التنقص من الكتب الأخرى التي أنزلها الله ، بل إنَّ الذب عنها من الديانة، وكذلك نؤمن بانَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم أفضلُ الرسل ولا يدعونا هذا إلى تنقص بقية الرسل عليهم الصلاة والسلام بل إنَّ الذب عنهم من الديانة أيضا، إذا كانت هذه عقيدتَنا وديننَا فإنّ من لوازمه أن نقول إنَّ اللسان الذي جاء به القرآن وتكلم به محمد صلى الله عليه وسلم هو أفضل الألسنة .

لهذا أقول إنَّ اليقين الموقن الذي لايخالطه شك هو أنَّ القرآن الكريم هو أعظمُ كتابٍ نزل من عند الله،وهذا اليقين تولد منه يقينٌ موقن من أنَّ اللسان الذي اختاره الله لهذا الكتاب العظيم هو أكمل لسانٍ عرفه البشر وهذا الأمرُ قطعيٌ قضى الدليل وصحة النظر بضرورته ؛فعندما يباهي الله بكون هذا الكتاب مهيمنا على غيره{وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ } (٤٨) سورة المائدة فيختار له بحكمته هذا اللسان ، فلا شك أنَّ بهذا سرًا أحظاه الله هذا اللسان" أحظاه أي جعله حظيا وأهلا " وهذا السر ممزوج مزج إشراب لا انفكاك منه؛ إذ إنه ليس من صنع أووضع بشر؛ فهو لم يترقَ، وإنما عظمته خلقها الله من حين تفتق به لسان المتكلمين.

فهل نحن وصلنا إلى السر الذي أودعه الله بهذه اللغة وهذا اللسان وخصها به من سائر اللغات والألسنة لتحمل هذا الكتاب المجيد ؟.

من هنا جاءت الكتابة في هذه النظرات ففي يوم السبت ١١/ جمادى الأولى/ ١٤٣٤هـ بدأت أخط فيها وما هي إلا وَشَلٌ أضمه إلى بحرمن سبقوا في هذا الباب علي وعليهم رحمة الله ورضوانه.

وامرٌ جدير بالتنبيه إليه ذلك أنه لايكفي بأن أقولَ أوتقول إنَّ اللغة العربية هي أكملُ اللغات لأنها وعاءُ أعظمِ كتب الله فهذا الإكبار يبقى يقيناًعندنانحن المسلمين،وهي كذلك عندمن تذوقها من غير المسلمين أما عند غير هؤلاء فقديكون الأمر بمثابة دعوى عريضة، أوعصبية من أهل اللسان للسانهم هذا ماقد يرموننا به.

كذلك لا أريد أن أبين خصائص العربية من داخل العربية فتكون موازناتي بين قبسات من نصوصها ، فهذا لا يروي الظمأ و لا يكفي بتأكيد أنَّ لها خصائصَ لا توجد في غيرها. ولكي يتبين الفرق بين دراسة اللغة من الداخل ودراستها دراسة مقارنة وضعت مقدمة بيانية يتبين فيها دراسة اللغة من الداخل، أبرزت ماظهر لي من بيان وجمال من خلال نصوص عربية.

لهذا عزمت ـ مستعينا بالله ـ على تلمس بعضٍ من هذه الأسرار ، متشددًا في تبني السر أوالقول به أواعتباره، فلا يكفي أن تكون الإجابة بذكر خصائص العربية مالم تكن هذه الخصائص مؤكدًا

فيها أنّها لا توجد في اللغات الأخرى ، وستجد في حديثي عن كتاب فقه اللغة وسر العربية وكتاب أسرار العربية مايؤكد هذا المذهب .

وهذا هوالخيط الذي أريد من هذا البحث ـ بإذن الله ـ أن أمسك به، و أن يكون لي دلوٌمع الدلاء لعلي أستقي منه يوم الفزع الأكبر .في يومٍ شديدٍ حره .

كذلك إذا كنا نعدد خصائصَ مشتركةً بين اللغات فإننا لم نصل إلى الإجابة القاطعة لهذا السر. فالحقيقة لظاهرة أوخصيصة لغوية تُثْبت أوتُنفى من خلال الاحتكام إلى وجودها أوعدمه في اللغات الأخرى.

ومما أخذت به في هذه النظرات أني تبنيت الرأي الذي يقول: إنَّ توثيق الرأي في الدرسات النظرية لا يعتد به إلا حين يكون من المصادر المقبولة لدى أصحابه؛ وهذه المصادر والمراجع التي استقيت منها هذه الأسرار أرى أنها مرضيةٌ لدى أصحاب الاختصاص اللغوي وينطبق عليها هذا المنهج .

أما إذا كان الكلام يجري من العالم من غير موازنة فإني لا أعده دليلا، ومن هذا ماقاله الجاحظ رحمه الله في البيان والتبيين ج٣ص٢٩تحقيق عبد السلام هارون رحمه الله.

: [... إلا أن كل كلام للفرس، وكل معنى للعجم، فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي، وطول خلوة، وعن مشاورة ومعاونة، وعن طول التفكر ودراسة الكتب، وحكاية الثاني علم الأول، وزيادة الثالث في علم الثاني، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم... وكلّ شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة ... فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالا ، وتنثال الألفاظ انثيالا]

هذه الفقرة يفصل فيها القول بأن الفرس وسائر العجم لاتنطلق في كلامها على سجيتها وفطرتها وإنما كلامها عن طول فكرة ؛ فلغتهم لا تمكنهم من القول على البديهة، فلابد للمتكلم عندهم من المعاودة للرأي ؛ فلغتهم أثقل على العقل واللسان من لغة العرب ، ولابد للقائل لديهم من خلوة ومشاورة واستعانة وإطالة النظر ومدارسة الكتب..

أما العرب فهم بخلاف هذا فكأنما هم يلهمون القول إلهاما ؛ فما يكاد العربي يصرف همه إلى الحديث في أمر معين وإن كان هذا الأمر وليد الساعة إلا تأتيه المعاني أرسالا وتنثال الألفاظ انثيالا ؛ والأمر عندهم يجري مجرى الفطرة والغريزة؛ فهم لايقيدون ولايعلِّمون ومابهم من بلاغة إنما هو طبع وسجية ترد على اللسان من غير تكلف فيفيض بها . فهذا اللسان الذي فاق غيره أحكم العقول التي جعلته مبينا عمافيها، وزكته إذا أصبح هذا اللسان مترجما عمافيها فمن أسرار هذه اللغة جريانها بسهولة ويسر على لسان المتحدثين بها سليقةً لا تكلفا.

وقال ابن رشيق ـ رحمه الله ـ في كتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده:{ العرب أفضل الأمم وَحِكْمَتُها أشرف الحِكَم كفضل اللسان على اليد}

أقول هذا الكلام ـ من الجاحظ وابن رشيق ـ وإن كان عندي مرضيا وأطرب له إلا أني لا أراه دليلا لأنه لم يُبنَ على برهانٍ مذكور يقرأه المرء، و لا أشك بأنه لم يُقل عن هوى بل لدليل استحكم في

الذهن، ولأنّ الأمر من التسليم بمكان فلم يدخلا في أدلته. وهذا المنهج كثيرٌ في كتب القدامى والمحدثين.

إذن الأمر الذي يدعو إليه حبنا لهذا الدين و حبنا لهذا الكتاب العظيم وحبنا لهذه اللغة يجعلنا نبحث عن جانبٍ من السر الإلهي لهذه الحقيقة المودعة بهذا اللسان.

فهل هذه الخصيصة بحروف العربية أم بطريقة نظم هذه الحروف أم بالمعاني المتولدة من هذه الحروف أم هي اللغة التي علمها الله آدم عليه السلام أم بأمر آخر؟

والبحث في أي اللغات أسبق رأيت العدول عنه لأني لم أجد فيه دليلا قطعيا من كلام الله أوكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ،وإنما قصارى أدلة الباحثين نقوش تثبت اليوم لغة سابقة ثم يكتشف نقوش غيرها تنقض ما قيل به، وهكذا هي مسائل التاريخ الموغل بالقدم ، ولعل أكثر ماأطمأنت إليه نفسي في هذا الخصوص هو كلام ورد في كتاب: دراسات في اللغتين العربية والسريانية، للدكتور إبراهيم السامرائي حين قال: " لقد أدرك هؤلاء ـ يعني المستشرقين ـ إدراكًا سليمًا أنَّ جمهرة هذه اللغات التي دعيت بـ" السامية " مجموعة بل أسرة لغوية لها خصائص معينة يتببنها العارفون في كل لغة من أفراد هذه الأسرة وهذا قدحفزهم إلى القول: بـ" السامية الأم" التي لا نعرف متى كانت وأين درجت وكيف تحولت بل ذابت في أشتات هذه اللغات الأخوات، وهذا يهدي إلى أنَّ المادة اللغوية في أيٍ من هذه اللغات مادة سامية" ص٢٣،٢٢ ؛ ويرى الدكتور أنَّ الألفاظ الخاصة بالأديان مما احتفظت به كل لغة من القِدم " ... كالألفاظ النصرانية مثلاً، مثل الفصح والباعوث، والدنح ،والسا عور، والشماس، والقس ... ومثل هذا يقال في الألفاظ العبرانية" "

وحين كنت أعالج هذه النظرات وأجمع مادتها وأقرأعن أقدمية الألسنة التي لم أرفيما اطلعت عليه شافيا يَفْصل القول في المسألة ويطمئن إليه القلب حين كنت كذلك قدحت في ذهني مسألةٌ تقول: هذه الأجناس من عربٍ وفرس وعبرانيين وسريان وغيرهم ، هل هم منسوبون إلى اللسان؟. أم اللسان منسوبٌ إليهم ؟ فهم سموا بهذا لأنَّ لسانهم كذلك،فالله ـ سبحانه ـ حين ألهم آدم النطق باللسان ألهمه اسمه من مجموع الأسماء التي علمها إياه ـ عليه السلام ـ ؛ فهم لمَّا يبلغوا من الكثرة ما يميزهم بأعراقهم، وهم في مكانٍ واحد فلم يتفرقوا فينسبوا إلى أمكنتهم فجعل الله التمايز باللسان أي هناك لسان اسمه عربي وآخر فارسي وثالث سرياني ...إلخ، تكلم به آدم وبنوه الأقربون ثم اختص كل قومٍ بلسان فنسب إليه المتكلمون به، حتى إذا انتشروا في الأرض وذهب كل قوم بلسانهم نُسي سبب التسمية الأول،وأصبحت العصبية للعرق أوالمكان .

هذه المسألة قدحت في ذهني وأنا أعالج هذه النظرات وأجمع مادتها، ومكمن إثارتها كما قلت حين كنت أقرأعن أقدمية الألسنة.

ولتكون على بينة أثير معك هذا السؤال: ماذا لوقلنا بأنهم منسوبون إلى اللسان؟ فأقول:لوأخذنا بأنَّ الجنسَ منسوبٌ إلى اللسان فإنَّ في هذا ما يعزز عدم القطع بوجود لغة تسمى أم اللغات؛ لأنَّ الألسنةَ وُجدت في زمنٍ واحد . هذا هو موضع المفصل من هذه المعالجة.

والقول بتعدد لسان ولد آدم ـ عليه السلام ـ الذين عاشوا معه مذهبٌ نقله ابن جني في خصائصه، قال رحمه الله في حديثه عن قوله تعالى {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا } (٣١) سورة البقرة. {... على أنه

قد فُسرهذابأن قيل : إنَّ الله سبحانه علم آدم أسماء جميع المخلوقات ، بجميع اللغات: العربية ، والفارسية،والسريانية والعبرانية،والرومية وغير ذلك من سائر اللغات ، فكان آدم وولده يتكلمون بها .

قلت هذا المذهب صدَّره ابن جني ـ رحمه الله ـ بلفظتي تمريض هما (فُسر وقيل) وهما من الألفاظ التي يراها علماء السند موهنةً للخبر . وفيهما إشارة إلى أنه ينقل هذا المذهب من غير يقينٍ من القول به أو تبنيه، ولا تثريب عليه بهذا فالأمر من القِدم بمكان يدعو إلى هذا ومثله.

إذ قصارى الأمر لايعدو أن يكون نظرية ولم يصل إلى كونه حقيقة، فإن صح أنَّ ولد آدم ــ عليه السلام ـ تكلموا بمجموع ألسنة فليست هناك لغةٌ أمٌ تعود إليها سائر اللغات لأن اللغات وجدت في زمنٍ واحد، إلا ماكان من لغات وُجدت بعد افتراق الناس وتباعد أما كن سكناهم فلا بد لهذه اللغات من أم تعود إليها .

و لكن إذا ذهبنا إلى القول بعدم وجود لغة هي أم اللغات فإننا نعلم أنَّ الله ـ سبحانه ـ زكَّى اللسان العربي لهذا فمن المقطوع به أنه سيكون أفضلَها وإن شرِكْته هذه الألسنة في الأسبقية والقدم؛فليس التفاضل مقصورًا على نشأة لسان، و إذا لم نقل إنَّ العربية هي أم اللغات فمن الجائز أن نقول إنَّ العربية هي اللسان الذي بقي كثيرٌ من خصائصه زمن إلهامه آدم عليه السلام، ولعل قراءة رأي الدكتور منير بعلبكي المتمخّض من مقارنةٍ مع كثيرٍ من اللغات تعزز هذا ؛ حيث ورد عنده كثيرًا قوله: احتفظت العربية بكذا.

ومما يشير إلى هذا الرأي قوله تعالى : {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ } فصلت (٤٤) لأنه سمَّى غير اللسان العربي أعجميا ؛ فهو منسوب إلى العجمة وإليه نسبت الأقوام التي به تتحدث فقيل عجم، والعجمةُ عكسُ الإبانةِ والإفصاح . فالعربي إذن منسوبٌ إلى اللسان ذي الإعراب والإبانة ولم ينسبوا إلى الجنس والعرق ، فهذا الجنس من الناس سمواعربابالأنَّ لسانهم عربي أي مبين، وممن أشار إلى هذا أبو جعفر النحاس رحمه الله؛ حيث قال في ج٢ص٣٠٩من كتابه إعراب القرآن: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (٢) سورة يوسف.(و{عربيا} على الحال ومعنى أعرب بيَّنَ ومنه " الثيب تعرب عن نفسها) قلت : ومفهوم قول أبي جعفر أنَّه عربي لأنه مبين؛ فالعربي منسوب إلى الإبانة لا إلى العرق.

قال ابن فارس رحمه الله:" عند حديثه عن مادة " عرب " : أعرب الرجل عن نفسه إذابيَّن وأوضح ....فأما الأمة التي تسمى العرب فليس ببعيدٍ أن يكون سميت عربا من هذا القياس ؛ لأنَّ لسانها أعربُ الألسنة ، وبيانُها أجودُ البيان " إهـ وقول ابن فارس من أوضح الأدلة على هذا الرأي

و قال الوزير المغربي ـ رحمه الله ــ في كتابه " أدب الخواص في المختار من بلاغات قبائل العرب وأخبارها وأنسابها وأيامها " ص٨٧ وما بعدها { فصل في ذكر اشتقاق العرب ...الذي أراه أنَّ العرب سميت عربا بهذا الاسم لإفصاحهم باللغة وإيضاحهم سبل البلاغة ، من قولك أعربت الشئ أو عن الشئ إذا أبنته أو أبنت عنه ، وعرَّبتَ عن فلا ن : أبنت عنه }

ومن المجازفة التاريخية والعلمية أن يُجزم بأقدمية لسان على بقية الألسنة إلا بدليل من الشرع قطعي الثبوت،أما الأفضلية فالقول بها يختلف عن القول بالأسبقية.

احتفظت العربية بكذا مصطلحٌ يدل على أنَّ العربية التي نتكلمها هي اللسان الذي بقي كثيرٌ منه من ألسنة ولد آدم ـ عليه السلام ـ ولا أقول إنها الأم التي تعود إليها بقية اللغات.

ولكثرة الأدلة التي أوردها الدكتور/ رمزي بعلبكي في كتابه[فقه العربية المقارن]. على احتفاظ العربية بكثيرٍ من الخصائص ، ثار في نفسي ميلٌ لهذا الرأي وهو كونها أو أكثرُها من الألسنة الباقية التي كان آدم ـ عليه السلام ـ وبنوه يتكلمون بها.

لم أجد فيما رجعت إليه من مصادر أومراجع قولاً يقول إنَّ العربية خلت من لفظة كذا بينما بقيت هذه اللفظة في لغة كذا ؛ وهذا فيه إشارتان الأولى : أنهم جعلوا العربية أصلا يعوِّلون عليه والثانية أنَّ النقص ظاهرٌ في اللغات الأخرى.

أخفقت بعض دراسات فقه اللغة المقارنة حين تناولته بنَفَسٍ عرقي فمما يجري مجرى العصبية للعرق أنَّ كل قوم يرون أنَّ لغتهم ـ من غير دليل ـ هي اللغة الأفضل ولهذا قال جالينوس عن اليونانية: هي أفضل اللغات وأنَّ ماعداها من اللغات يشبه إما نبح الكلاب أو نقيق الضفادع " وهوهنا قال بالأفضلية بكلامٍ مرسل من غير دليل وبنبرةٍ عاطفية يستطيع أن يقولها أي شخص عن لغته، ثم أتبع هذا بهجاء بقية اللغات وهذاكافٍ لاطِّراح رأيه .

وفي كتابه " التحيز اللغوي وقضيا أخرى" ص١٣ ينقل الدكتور حمزة بن قبلان المزيني عن " بيتر فارب":(إن كثيرا من الجماعات اللغوية تشعر بأنَّ لغتها هي اللغة الإنسانية الأفضل، ويذكر من تلك الجماعات الشامولاس وهي جماعة لغوية في المكسيك، والروندي في أفريقيا، والتشكتاو وهي قبيلة من قبائل الهنود الحمر ... فيرى التشكتاو مثلا أنَّ لغتهم كانت أقدم اللغات)إهـ،

وإذا أردت أن أضيف تعليقا فإني أصدره بقولي : قلت.أوأقول

هذا وقبل عرض ماوصلت إليه من سر هذا اللسان قدمت بمقدمة بيانية تجلو طرفًا من جمال هذه اللغة وتكون بمثابة التطرية لما بعدها من خصائص وأسرار اللغة العربية عند علمائنا القدامى عليهم رحمة الله ورضوانه، وهذه المقدمة لا أعدها من أسرار العربية لأنها دراسة لها من الداخل أي موازنة بين نصوصٍ من نصوصها.

والحمد لله رب العالمين

عمر بن عبد الله العُمري

المملكة العربية السعودية/عنيزة

الأربعاء٢٩/ شوال/١٤٣٧هـ

٣/ أغسطس/٢٠١٦م

مقدمة بيانية

وهي تهدف إلى طرفٍ من دراسة العربية من داخلها، أي إبراز شئٍ مما استودعه البلغاء وذووالبيان؛ ليستبين الفرق بين خصائص اللغة بنصوصها وبيان ما اختصت به من سائر اللغات حيث الأدلة على هذا الخصائص ستجدها لاحقا.

فهي حروفٌ غُصْتُ من خلالها في أنابيش من دفائن بلغاءَ من أسلافنا عليهم رحمة الله ورضوانه واتت قرائحهم وقدحت أذهانهم بما يستحق أن يحتذى وأن نتخذ منه عدةً نعدها لتقويم اللسان،وهي حروف أفصحتُ فيها عما استبان لي من وجهٍ بياني للنصوص المختارة .

و ليس شئٌ ألْقَحَ للبيان وأقومَ للسان وأسلم من الركاكة من مدارسة كلام أهل الطبع ؛وإطالة النظر فيما أنجبت قرائحهم ، وإذا رأيت انباسط نفسك لكلامهم واستطابتها له فاعلم أنك زاحفٌ معهم فاستمسك بغرزهم .

وهذه الأنابيش تسربت في مطاوي كتب هؤلاء الأسلاف وأشعارهم فنطقوبها بداهةً أوسطروهاتحبيرًا وهم في حال صفاءٍ للذهن وخلوٍ من شغل فامتحنت تلك الساعة ألسنتهم للبلاغة.

وتصيدتُ هذه الدفائن بقراءة شيئٍ من شعرهم ونثرهم وحاولت الغوص على بعض مافيها من خبئٍ بليغ أكنَّ في مطاويه ودائعَ جمالية.

تتفاوت وتتفاضل أقدار الألفاظ الحاملة للمعاني فهي من ولد الذهن وهي بحسب المعدن الذي قذفها إلى اللسان.من وضاءة نظر وعمق تجربة وصواب ملمحٍ. أسلم لك بلفظه مفاصل المعاني ،ولعل هذا ينبهك إلى أن تستنطق ودائعَ أخرى حفل بها ركاز اللغة ، ولعله يستجم دَرة عقلك وبيان لسانك .فما أكثر ماترك الأولُ للآخر.

فهي من ركازالنظرُ فيه مسلكٌ للدربة ، ومعين على زكاتهاونمائهافي مرتع تحليل النصوص الأدبية .

وهذه التحليلات تحاول أن تصل إلى خطرات أخفاها الكاتب أو الشاعر، أوهي نبشُ خطراتٍ لم تخطر ببال قائلها ولكنَّ رحابة اللغة وسخاءها يبارك لك هذه المأخذ من كلام متحدث أو كتابة كاتب أو شعر شاعر ويحظك عليه ،واستدعاه تدسس المعاني. كما قال ابن جني رحمه الله .

والدارس الماهر للنص يكون ألحنَ في الحجة للنص من صاحب النص في الإبانة عن مطاوي قوله؛فهناك منافذُ ينفذ منها الناقد لاتكون في اعتبار القائل أوالكاتب. ساعة ولادة النص. ولمحة الناقد البصير أنبش للدفين.

وليس من غاية هذه المقدمة البيانية أن تبرز لك أوجه التفاضل بين الأساليب،وإن رأيت شيئا من هذا في ثنايا ما تقرأ فهي خطرات أثارتها شجون القول من مجاثمها.

و من الموازين التي أزن بها اختياري هو قدرة الكاتب على إبراز المعاني الذهنية بلفظة أخَّاذة،ولا تعجب إذا قلت لك إنني أكاد عند قراءة بعض هذه الأنابيش أن أحرك لساني متلمظًا كأني أحس جمالها بعقلي ووجداني وفمي مستطيبا طعمَها.

ولغتنا بذلت نفسها لكل باحث ولم تختبئ عن أحد ، ولم تهب زيدًا ما خفي عن عمرو،ولكنَّ زيدًا وعمرًاهما اللذان يستطيعان أن يجعلاها طيعة أو عصية ، بما يبذلانه من مهرٍ لحمته وسداه حبها

وإدامة النظرفيها ؛فهي أغلت مهرها وشامت بنفسها عمن أرخصها،كما أنَّ ذلك رهنٌ بدرجة قدرتهما على اصطفاء اللفظة التي حفظتها في مناجمها ؛فنباهة الأديب أو الشاعر ودرجة تمكنه من اللغة هي التي تجعله قادرا على صياغة فكرته صياغة تحدث صلات حميمية متوادة بين الألفاظ فتجد النفوس لقوله قبولا، ولا يستجلب لفظة تعجز عن نقل المعنى فتحدث الفرقة والتنافر فيتولد كلام هوأشبه بأولاد العلاَّت.

وقال ابن جني رحمه الله. في كتابه الخصائص في الحث على حسن التأتي للمعاني والترفق بطلبها : [وهذا أمرٌفيه انتشار وامتداد... .والأمر أوسع شقة ،وأظهركلفة ومشقة، ولكن إن طبنتَ له ورفقت به ،أولاك جانبه وأمطاك كاهله وغاربه وإن خبطته وتورطته كدك مهَلُه ،وأوعرتْ بك سبله ، فرقا وتأملا] طبِنت :فطنت ، تورطته سرت فيه على غير بصيرة، كدك مهَله ، أتعبك سبيل التعرف عليه وأبطأعنك. .ص: ١٠٩- ١١٠.ج١

وأبوالفتح لايفتأ - رحمه الله - يذكِّر بهذا المنهج، حيث قال في ج٢ص ١٠٨ في حديثه عن العلاقة بين المعاني وأصوات الحروف. [فهذا ونحوه أمر إذاانت أتيته من بابه وأصلحت فكرك لتناوله وتأمله أعطاك مقادته وأركبك ذروته...]

ومن اليقين الذي لايخالطه شك و يجب أن نعمل به ونجعله قطب الرحى في دراساتنا البيانية أن نملا قلوبنا بأنَّ اللسان الذي تحدث به العربي قُبيل نزول القرآن العظيم قد بلغ الغاية في البيان.ثم أطبقت هذه الغاية وأُحكمت بعد نزول القرآن الكريم،فنزوله بمثابة الإعذاب والتنقية لهذه اللغة العظيمة وحفظ دقائقها ولطائفها .وإرهاف الحس البياني لمن يديم النظرفي هذا الكتاب العظيم.فاللغة بعد نزول القرآن كما يقول أبوموسى[... فصارت فيه في مرتبة الكمال المطلق بعدما كانت في بيانهم في مرتبة الكمال البشري]

و الحس بجمال البيان القرآني لا ينال إلا بالانقطاع إلى تلاوته فيألفه العقل واللسان وبالإكثار يكون في هذا الكلام أيضا من لطائف البيان والنقد مايكون كافيا للتقعيد البياني،إلا أنَّ الذوق هو المحرك هنا واستخراج قواعد النحووالصرف بطريق العقل أولاثم تبلغ هذه القاعدة جمالها بما توشى به من لفظ من سماعه فتمتلئ منه الأذن.وإذا كنا قد استخرجنا من كلامهم قواعد النحووالصرف فلابد أن ؛ وابن جني والرماني رحمهما الله لهما من أجمل النحاة لفظا.

بلاغة القرآن وسموبيانه من المسلمات التي لم ينازع بها العربُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم. مع ما أجهدوا به أنفسهم بالطعن بالقرآن وتنقصه فرموه ووصفوه بماهومعلوم للجميع ولكنهم لم يتجرؤا على عيب بيانه أونظمه.لأنَّ هذا شأنٌ استحكم في نفوسهم.

فكل ماخطر ببالٍ من خللٍ في النظم القرآني فاعلم أنه خاطرٌ لا يعبأ به؛ فالعرب عريضو الدعوى في هذا وعلى تواسع دعاواهم في النيل من القرآن الكريم لم يطعنوا ببلاغته أو نظمه. بل إن سبب قولهم إنه سحر أوشعر لما وجدوا فيه من تأثيرو جمال ؛ لأن الشعر أرقى فنونهم والسحر له تأثير على النفوس لا يملكون رده ولا حيلة لهم بدفعه ، كذلك القرآن فلم يستطيعوا مجاراة القول بمثله ، وعجزوا عن الخلاص من أثره.

القرآن الكريم استحث العرب بالمقارعة على الإتيان بمثله في النظم فلم يستطيعوا ، وحين ناطحهم المسلمون بالسيوف جردوا سيوفهم لأنهم يستطيعون، وهذا يؤكد عجزهم ؛ إذ ليست محاولة الإتيان بمثله أسلمَ للنفس من المجالدة بالسيف ، ولكنهم تيقنوا العجز فنكصوا ، وهذا يؤكد تسليمهم لبيانه وانبهارهم ببلاغته ، ومعرفتهم لمقادير أنفسهم في البيان أمامه وهم من هم أنفةً في التنقص من بيانهم . وتوارى منهم عرق العصبية مع فرط غلبة رغبتهم في النيل منه.

وجمال نظمه والترابط فيه بين الآي بينٌ ظاهر، والأسلوب المترابط أشبهه بالساق الذي يحمل السنبلة. فلوأخذنا ساقًا من هذه السوق فإننا سنجد أنّه يتكون من مجموعة من العقد كل عقدة تحمل مافوقها ولو ضعفت عقدة متقدمة من العُقَد لأضعفت مابعدها وهكذا حتى تنتهي إلى السنبلة وهذا هو البناء الأسلم لإيصال فكرة معينة .

وهذا الأسلوب وتهذيبه والقدرة الفائقة على التعبير الجمالي عن المعاني والأفكارلايصل إليها الإنسان عن طريق معرفة وحفظ الأصول التي وضعها المقسِّمون المفرعون للأجناس البلاغية. الذين خبطوا البلاغة في أمها عفا الله عنهم و عليهم رحمة الله.

فالتمكن من جمال التعبير كماقال البا قلاني.رحمه الله : {الطريق الملائم لصقل الحاسة النقدية هو إدمان النظرفي كلام أهل الطبع} إهـ

.و يخضع لأمورٍ منها .الموهبة التي وهبها الله لإنسانٍ ما والذوق الشخصي، وكثرة القراءة لأفذاذ البلغاء،والمران على التحليل والنظر إلى ماخلف اللفظة من المعاني. والقدرة على التمييز للألفاظ وإبداء المفاضلة بين الجيد والرديء منها .

والذي لم يطبع على الإحساس بالجمال البياني لا حيلة في إثارة إعجابه فأنت معه كمن يستسقي شنًا باليا ؛ قال عبد القاهر رحمه الله: {إذا خاطبت بموضوع الإعجاز من ليس له طبع في فهم كلام العرب كنت كمن يلتمس الشم من أخشم}

ولا غرابة حين نجدأنّ صاحب أسلوب جيدلايحسن تعريف الجناس أوالطباق أوأي نوع من هذه التقسيمات التي بليت بها البلاغة.كذلك الحال في الشعر فقد تجد متمكنًا منه قولا وإنشادا،وقادرا على إعجاب القراء بما يقوله من الشعروهولايعرف من علم العروض بحرًا واحدا .ولوذهبنا إلى من يقول الأدب بأي من شقيه الشعري أوالنثري وهو صادر عن موهبة أصيلة وطلبنا منه أن يقوم بتحليل ماقال أوماكتب واستخراج مواطن الجمال فلا نفاجأ انّه من الممكن أن يستعصي عليه شيء من هذا .لماذا ؟لأنّه يقول عن موهبة فطرية لامستجلبة. فهو يعبر لأنَّ في داخله جيشانا لا يملك حبسه فلابد له أن يقول لا لأنه يريد أن يعرض ملكاته البلاغية بل هي حالة شعورية لا بد لها من منفذ تنفذ منه؛ ولاتعجب إذا قلت لك إنَّ المبدع يصل في بعض حالاته إلى مرحلةٍ لا يملك معها الإرادة في منع ما يغلي داخله فلابد أن ينفث؛ فكما الولادة المادية لاتملك الأم منعها فكذلك الولادة الفكرية.

وليس من لوازم من أتقن وحذق أقسام البديع أوالبيان أوعلم المعاني أن يصبح أديبا متفننا،وإننا لنجد أنّ أصحاب النصوص التي بلغت غاية في جمالها قد وُجدوا قبل أن يعرف الناس هذه التقسيمات التي خلطت البلاغة بالمنطق.

بل إنّ الأديب ليخفق إخفاقا ذريعا عندما يكون من همه في العمل الأدبي أن يشبه كذابكذافيكون قدأعدالمشبه والمشبه به ووجه الشبه قبل ولادة النص الأدبي .فهذا أسميه نجارًاأوخياطًا أونحوهما لأنّهما هما اللذان يرسمان الهيئة ثم يقومان بإعدادماينا سبها.

فالأديب المطبوع الفذ هوالذي تنثال عليه المعاني ثم تتزاحم لديه ألفاظها عند نضج التجربة الشعورية وبداية تدفقها.

وهل الشأن في جمال ألأسلوب أو القدرة على التحليل فطري أم مكتسب؟ أقول إنّه من واقع قراءاتي لأساليب منوعة فإن الجمال الذي تكاد تتفق عليه الأذواق لايكون إلا فطريا وينمى عن طريق المران والتجربة؛فصاحبه لديه هبة آلهية أقدرته على الإبانة بأسلوب راقٍ أما مادون هذا من الأساليب فإنّه من الممكن أن يكون مكتسبا؛وهذا ماعليه عامة الكُتَّاب والشعراء؛وفي كلا المستويين لاغناء عن المران والتجربة.

ونحن نعلم أنَّ هناك معانيَ تزاحف و تزاحم عليها الشعراء والأدباء فمنهم من نالها بنَفَسٍ رخي فلانت له وهؤلاء أهل الطبع المتغلغل في العقل فجاءوا بما يبهج النفس ويقر العين فاحتضنت معانيَهم ألفاظٌ كثر ماؤها، ومنهم من وصل إليها بنَفَسٍ لاهث ولكنه قال وأبدع؛ومنهم من قصُرعنها فأكثرالحزوأخطأالمَفصِل ،.ومنهم من عمي فجاء بكلامٍ غثٍ مستكره يسد على قارئه مجاري أنفاسه.

وذكر البا قلاني ـ رحمه الله ـ أنَّ الإصغاء للفظ أثناء القراءة بحثًا عن المعنى يفتح لك ما استغلق. وهذا الإصغاء وجدت كثيرًا منه في نفسي ، فحين أنغمس وانقطع في قراءة فكرة ممعنًا في فهم معناها فإني أحس في عقلي كأنَّ المعنى يومض و أذناي كأنما هما تريدان مخاتلة هذا المعنى واصطياده.لوضعه على سن القلم .

وقوله : الإصغاء للفظ كأنهم يرون ـ رحمهم الله ـ أن للألفاظ أرواحًا تحدثهم عن مكامن جمالها ، وهي سوف تسلمك زمامها إذا أعطيتها ما تستحق من العناية .

و من مسادِّ البلاغة عن البليغ أن يُدهش أي يفجؤه مالم يحسب له حسابا أو أن تضطرب حيلته فيطيش لسانه ، أو أن يعوقه عما استعجل عائق فتجد أنه في مثل هذه الحال يأتي بخلاف مايُعبر به.

و في العربية سرٌ خفي يعرفه من وازن بين خشونة عربيٍ من الصعاليك أو من قراضبة نجد وحرشة الضباب وأكلة اليرابيع ثم رأى مايسيل على لسانه من عذوبة اللفظ ورقة المعنى وكيف يسلُسُ لفظُ هذا اللص قاطع الطريق إذا عبَّر عن هوى وعشق فتجعله اللغة كأنه تحول إلى مخلوقٍ آخر، لا أظن إلا أنَّ هذا سرٌ من أسرار العربية، وإلا كيف برجل مثل عنترة الذي يصل في بعض مستوياته إلى الوحشية أن يصدر منه مثل:

فَوَدَدتُ تَقبيلَ السُيوفِ لأَنَّها - لَمَعَت كَبارِقِ ثَغرِكِ المُتَبَسِّمِ

اقرأ هذا ثم اقرأ:

فطعنته بالرمح ثم علوته بمهندٍ صافي الحديدة مخذم

بل كيف بالشنفرى الذي يكفيك اسمه الموحي بالسطو والإغارة والخشونة أن تصدر منه عجيبة من عجائب الشعر العربي هي لا مية العرب.

وكما تعين اللغةُ الشاعرَ في تخير ألفاظه للتعبير عن الجمال، نجد أنها كذلك طيعةً سهلةً لينة في التعبير عن معانيه، وإن بعد غور هذه المعاني كما ورد عند الشنفرى في لا ميته:

فقالوا لقد هرَّت بليلٍ كلا بُنا فقلنا أذئبٌ عسَّ؟ أم عسَّ فرعلُ

فلم تك، إلا نبأةٌ ثم هَوَمَّت فقلنا قطاةٌ ريع ، أم ريع أجدلُ

فلله هو مع مافيه من جفاء الصعلكة وشظف العيش وسكنى الصحراء، إلا أنَّ اللسان الذي يتحدث به لسانٌ له من طواعية التصرف ما يمكِّن الناطقين به من القول بما يريدون.

ومن أجمل ما قرأت من طواعية هذا اللسان ما ذكره أبو فراس الحمداني في رائيته:

إذا الليلُ أضواني بسطتُ يدَ الهوى

وأذللتُ دمعاً منْ خلائقهُ الكبرُ

تَكادُ تُضِيءُ النّارُ بينَ جَوَانِحِي

إذا هيَ أذْكَتْهَا الصّبَابَةُ والفِكْرُ

ثم قال:

وإني لجرارٌ لكلِّ كتيبة

معودةٍ أنْ لا يخلَّ بها النصرُ

فَأَظمأُ حتى تَرْتَوي البِيضُ وَالقَنَا

وَأسْغَبُ حتى يَشبَعَ الذّئبُ وَالنّسرُ

استرخِ قليلا وأغمض عينيك ثم وازن بين طواعية اللسان العربي وانقياده؛ حيث تمكن الشاعرمن أن يعبر بجمالٍ عن معنيين متضادين في قصيدةٍ واحدة وبحر واحد وحرف رويٍ واحدٍ.

قال طرفة:

إذا القَومُ قالوا مَن فَتىً خِلتُ أَنَّني عُنيتُ فَلَم أَكسَل وَلَم أَتَبَلَّدِ

أَنا الرَجُلُ الضَربُ الَّذي تَعرِفونَهُ خَشاشٌ كَرَأسِ الحَيَّةِ المُتَوَقِّدِ

المعنى الذي زحف إليه طرفة هو مدحُ نفسه فسار إليه بنَفسٍ رخيٍ مطبوع ،فناله بلفظ معبر عن حال العربي الذي اعتاد أن يُستصرَخ ويستغاث به في كل ساعة؛ فقوله : [إذا القوم] يصور المفاجأة بالمكروه ؛ وقوله:[من فتى] أوحت في الإسراع في طلب النجدة ؛ وصوغ الاستصراخ بهذا الاستفهام فيه ملمحٌ بدل على اضطراب الحيلة وطيشها وشدة الكرب الذي لا يدفعه إلاذوفتوة ؛وهذا التركيب رحب سخي فأنت تقرأه وكأنك تستحضر الصورة المضطربة التي أظلم بها الموقف ،فهو ناقل للصوت والحركة ، بل إنك إن استجمعت الصورة في ذهنك وأصغيت إلى مكوناتها من الحروف فسترى يدَيَّ المستغيث تستحثان من حوله وتسمع صوته أيضا؛.

وقوله [خِلتُ أنني عُنيت] ظنه بنفسه هذا الأمر وأنَّ الاستنجاد موجهٌ إليه خاصة، يفيد الإفصاح عما تمكن في نفسه من حب النجدة فقد اعتاد سماع المستصرخين به ، لذلك طرح الكسل.: [ولم أتبلد] البلادة يراد بها هَوَان الحس ورقة النخوة المؤديان إلى التثاقل في إجابة المستصرخ.

ولفظة الفتى ممايتمدح به أهل النخوة من العرب ، وهم يطلقونها على أنفسهم إذا أرادوا نقل إعجاب الناس بفعالهم ونجدتهم، قال الأسعرالجعفي:

وكتبةٍ لبستها بكتيبةٍ حتى تقول سَراتهم : هذا الفتى.

وقوله : لبستها يصورلنا شدة فعله بالكتائب فكأنه يصفق واحدةً بأخرى حتى اختلطتا من شدة ذهولهما وانفلات الحيلة. وقول السراة وهم جمع سري أي سيد قومهم : هذا الفتى فيها استزادة لفعاله واستثارة لنخوته.وعَجَبٌ من إقدامه.

والبيت الثاني لطرفة فيه من فيض المعاني أنَّه اعتد بنفسه وحصربها الرجولة [أنا الرجل] فهي جملة مُعرَّفة الركنين المبتدأ والخبر، ثم ألبس نفسه خِلْقة ملازمة لذي النخوة وهي خفة اللحم على البدن وبهاتتمدح العرب ؛ لأنَّ كثرة اللحم على البدن داعية إلى الكسل،ثم استشهد بذيوع شهرته لديهم ،وأنَّ أمر شجاعته ومعرفتهم بإقدامه من التسليم بمكان لا تنكره القبيلة كلها،ثم التفت إلى ما يحيط به من بيئة فالتقط منها ماعرف بسرعة الحركة واضطرابها [خشاشٌ] فهو يمثل نفسه إذحمي الوطيس بحركة هذه الحشرات الطائرة التي لاتكاد تحدد جهة طيرانها فهكذاهوفي المعركة يُعمِلُ سيفه من غير اكتراث بمن أمامه،كما أنَّ من معاني [الخشاش] هوالمتوقد الماضي النافذ في الأمور، الذي يعرف مداخلها ، ثم إنه ذكي يقظ يشبِّه نفسه بأخذ الحيطة وتوقع المكروه والحذر منه بالحيَّة التي نصبت جسمها ونصَّت رأسها وبدأت تجيل عينيها حذرةً مستعدة.

لعمرك إنَّ الموت ما أخطأ الفتى لكالطِوَل المرخى وثنياه باليد

الطِوَل هو الحبل واستخدامها هنا أعجبني واستوقفني ، و،أحدث في نفسي قبولا للمعنى الذي يريد الشاعر إيصاله، ولا تقل : إنّه اختارها لإقامة الوزن وليس لها دلالة بلاغية لايمكن هذا لأنّ الشاعر فحلٌ من فحول الشعر العربي خاصةً مايتعلق منه في جانب الوصف والتشبيه ، ولك أن تعود إلى معلقته لتستمتع بدقائق وصفه لناقته ، ولا يعجزه أن يضع كلمة [الحبل] بدلامن الطول لو أراد ذلك، ولكن الأمر جذبته إليه بلاغة فطرية ،وأنا أجد في نفسي مذاقًا طروبًا حين جريان الطول على لساني في هذا السياق ،ولا أجد هذا في الحبل بل إني أحس الحبل لفظة مغسولة في هذا السياق؛ لذلك أجزم أنَّ الشاعر قالها ابتداء من غير أن تأتي على خاطره كلمة الحبل فهو تكلم بها سليقة لامفاضلة.لأنَّ حروف الطِول هي التي تؤدي المعنى بإحساس كما أراده الشاعر.

بينما أجد للحبل تأثيرًا في قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ} (١٠٣) سورة آل عمران. مما يدل أنَّ هناك فرقًا فيما تستعمل له اللفظتان.فالحبل لما يدل على الوصال والتواصل والاستمساك بالأمر والثقة بالوسيلة.ومن معانيها العهد والذمة.

كذلك أجد أنَّ لفظة الحبل أخذت موقعها في قول الشاعر المخضرم/ سويد بن أبي كاهل رحمه الله :

بسطت رابعة الحبل لنا فوصلنا الحبل منها ماتسع

وفيها لطافة أعان على جمالها خفة البحر العروضي [الرمل] الذي نظمت به القصيدة. ومعنى قول سويد: أي لانت لنا في الوصال فلنالها.

وكأنما الطول يُعبَربه - في حال ارتخائه - عن ساعات الإمهال والمد في الأجل.ولفظة [ثنياه] يشير فيها الشاعر إلى أنَّ اندفاع الأجل لا يعني فوتك منه.ومعنى ثنياه. طَرَفه.

وإتمامًا للمعنى فإنَّ [ما] في قوله ماأخطأ . مصدرية زمانية وليست نافية. فلا يُظن أنَّ جملة [ما أخطأ] هي خبر إنَّ.ولكن الخبر هوجملة [لكالطِوَل] فيكون معنى البيت : إنَّ الموت مدة إخطائه الفتى يشبه الطِوَل الذي تربط به الدابة وطرفه بيد صاحبها متى ما أراد أرسلها ومتى ماأراد أمسكها.

ويحسن إيراد لفظ ثالث للحبل ؛ لنرى كيف استقام التعبير به في سياقه ، قال جرير رحمه الله

وابن اللبون إذا مالُزَّ في قَرَنٍ لم يستطع صولة البزل القناعيس

القرن هو الحبل ولا يناسب أن نضع بدلا منه الحبل ولا الطِوَل لأن المعنى الذي أراده الشاعر هوالقهر والغلبة والقيد الإجباري ، وهذا ما تشير إليه لفظة اللز فهي لفظة قارعة .

قال عبدة بن الطيب عليه رحمه الله يصف قانصًا مع كلابه:

يشلي ضواري أشباها مجوعة ً فليس منهنْ إذا أُمكنَّ تهليل

يشلي : يدعو كلابه يهيِّج ويثير ويحرِّك مكامنَ افتراسِها ،والكلب من أشد السباع فتكًا إذاكان مدربًا، وأُشلي على فريسة ؛لأنه يجمع بين الوفاء والطاعة لمكلِّبه وبين تحوله من الألفة إلى الوحشية،،

أقول وعرفنا في بيئتنا من أنواع اللهو عند الفتية أنهم يربون الكلاب ثم يكون من لهوهم التحريش بينها وبين الكلاب الضالة، فتكون المرباة أشدَ فتكًا من الضالة والكلاب من السباع التي تستجيب عند إثارة تها، ويستعمل هؤلاء الفتية اسم فعل أمر هو[إشْ] ويكررونه لاستثارة كلابهم وقد يكون هذاالفعل هو المقصود من [يشلي]،ولفظة (يشلي) معبرة عن المعنى موحية بصوتها عن المراد من الكلاب فالمكلِّب يريدمنها أن تحيل هذه الطريدة إلى أشلاء.

والشطر الثاني بكامله يرسم صورة هذه الكلاب متمكنةً من الطريدة والطريدة تنازع طلباً للفكاك ولكن ليس لهذه الكلاب تهليل ، أي ليس لها منكص عن الفتك .

قال البحتري رحمه الله :

إذا اِحتَرَبَت يَوماً فَفاضَت دِماؤُها تَذَكَّرَتِ القُربى فَفاضَت دُموعُها

احتربت وقع الاقتتال بينها واختلطت رماح القوم حتى فاضت الدماء من الأجسام،ولفظة احتربت تعطي وترسم الصورة التي عليها القوم من رفع الرماح واشتجارها، ومن ثم اختلاطها بين الفريقين واختلافها في الأجسام حتى أدى هذا التطاعن إلى فيضان الدماء، فلما رأوا دماءهم تسيل رقت نفوسهم متذكرة وشائج القربى فكفوا عن الاقتتال وهاجت عاطفة المودة، ونبض عرق الرحِم فأفاضت الدموع.

قال مرة بن محكان رحمه الله واصفاً ليلة نزل عليه فيها أضياف، وهومن شعراء الدولة الأموية :

في ليلة من جمادى ذات أندية لا يبصرالكلب من ظلمائها الطنبا

لاينبح الكلب فيها غيرواحدة حتى يلف على خيشومه الذنبا

يصور الشاعر زمن نزول أضيافه به، وأنَّ هذا في ليلة باردة مظلمة، جعلت الكلب الذي يضرب به المثل في قوة الإبصارلايبصرالطُنب وهي الحبال التي يشد بها البيت، فكأنك ترى كلبه يتعثر بينها ؛ ومن صورة حسية إلى أخرى معنوية وهي شدة البرد، وأداة إبرازها هو الكلب أيضا فهولا ينبح إلا مرة واحدة

ومع عجزه عن النباح المتكرر فإنه لاينبح الواحدة إلا بعد أن يغطي خشمه بذنبه ليتقي البرد الداخل إلى الخيشوم.

ومن أهل الطبع الذين لانت لهم الكلمة أبو فراس الحمْداني رحمه الله،ومن أجمل شعره رائيته التي منها:

أرَاكَ عَصِيَّ الدّمعِ شِيمَتُكَ الصّبرُ
أما للهوى نهيٌّ عليكَ ولا أمرُ ؟
بلى أنا مشتاقٌ وعنديَ لوعةٌ
ولكنَّ مثلي لا يذاعُ لهُ سرُّ!
إذا الليلُ أضواني بسطتُ يدَ الهوى
وأذللتُ دمعاً منْ خلائقهُ الكبرُ
تَكادُ تُضِيءُ النّارُ بينَ جَوَانِحِي
إذا هيَ أذْكَتْهَا الصّبَابَةُ والفِكْرُ
معللتي بالوصلِ ، والموتُ دونهُ
إ ذا مِتّ ظَمْآناً فَلا نَزَل القَطْرُ!
حفظتُ وضيعتِ المودةَ بيننا
و أحسنَ ، منْ بعضِ الوفاءِ لكِ ، العذرُ
بنَفسي مِنَ الغَادِينَ في الحَيّ غَادَة
هوايَ لها ذنبٌ ، وبهجتها عذرُ
وَقُورٌ، وَرَيْعَانُ الصِّبَا يَسْتَفِزّها
فتأرنُ ، أحياناً ، كما يأرنُ المهرُ
تسائلني: منْ أنتَ ؟ وهي عليمةٌ
وَهَلْ بِفَتىً مِثْلي عَلى حَالِهِ نُكرُ؟
فقلتُ كما شاءتْ ، وشاءَ لها الهوى:
قَتِيلُكِ! قالَتْ: أيّهُمْ؟ فهُمُ كُثرُ
فَعُدْتُ إلى حكمِ الزّمانِ وَحكمِها،
لَهَا الذّنْبُ لا تُجْزَى به وَليَ العُذْرُ
فلا تنكريني يابنةَ العمِّ إنهُ
ليَعرِفُ مَن أنكَرْتِهِ البَدْوُ وَالحَضْرُ
وإني لجرارٌ لكلِّ كتيبة
معودةٍ أنْ لا يخلَّ بها النصرُ
فَأَظمأُ حتى تَرْتَوي البِيضُ وَالقَنَا
وَأسْغَبُ حتى يَشبَعَ الذّئبُ وَالنّسرُ
وَلا أُصْبِحُ الحَيَّ الخَلُوفَ بِغَارَة

وَلا الجَيشَ مَا لمْ تأتِه قَبليَ النُّذْرُ

وَسَاحِبَةِ الأذْيالِ نَحوي، لَقِيتُهَا

فلمْ يلقها جهمُ اللقاءِ ، ولا وعرُ

وَهَبْتُ لهَا مَا حَازَهُ الجَيشُ كُلَّهُ

و رحتُ ، ولمْ يكشفْ لأثوابها سترُ

وَنَحْنُ أُنَاسٌ، لا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا

لَنَا الصّدرُ، دُونَ العالَمينَ، أو القَبرُ

يأنس أبو فراس ـ رحمه الله ـ مع نفسه ويتحدث معها وتحدثه ،وتعتب عليه بسبب ماتظنه فيه من جمود المشاعر واحتباس دموع الشوق في عينيه متذرعًا بالصبر ،وكيف لا يُحدِث به الهوى طربا لا ينهاه ولا يأمره، لكنه لايرضى من نفسه بهذا العتاب فيسرع رادّاعليها:بلى أنا مشتاق ... ، كأنَّ هذا العتاب فجرفي نفسه مشاعر أكنها لمكانته ومقامه الاجتماعي فُرضت عليه فألبسته ثوبامن الوقار منعه البوح علانية بما يعانيه ، ولكن الليل أخفى للويل، فنجده ينفث فيه صبابته ويتبسط في شكواه فتصل حالة عشقه إلى البكاء وإرخاء المدامع ، ولا ينسى أن يذكرنا بأنَّ هذه الدموع من شيمتها الكبرياء لكنه الهوى الذي لم يملك معه هذا الفارس المزهو في أصالته من سكبه .

ثم ترتفع عنده حرارة البث والشوق وينقل لنا من هذا مايضطرم بين ضلوعه من لوعة الحب الذي هيجته صبابةُ أو تذكر فهو لا ينفك عن واحدةٍ منهما، ثم يعود مناديا حبيبته معاتبا لها بقوله: معللتي بالوصل ... فهي تمنيه وتظهرله مايسليه ويدهده مشاعره لتخفف جراحه، لكنه يعلم بما عرف منها من دلٍ وصد أنَّ هذا شأنها فهو كلام تعلله به ويعلم ـ بما خبر منها ـ أن الموت أقربُ من وصلها أوالظفربقربها،ولافائدةأن تصله بعد موته : إذامت ظمآنا فلانزل القطر!، ثم يفيض مايجده من تباين بينه وبينها فيقذف بحرارة وحرقه مايحمله من حفظٍ للود وما تضيعه هي..

حرارة الشوق لاتمهله لينفك عن هذه المكابدة فنراها تطل عليه بحالة أقوى فيبث من الحرارة ماجاشت به نفسه : بنفسي من الغادين ... ومن جمال البيت المجانسة بين لفظتي الغادين وغادة ،وحين أقرأ هذا البيت كأني أسمع زفرته وهو يتحرق شوقا إلى تلك الغادة وهي الناعمة، وقصارى ذنبه أنه يهواها.

وكلمة [بنفسي] أرى أنها موحية بما يعتلج في داخله ويخيل إلي أنه قذفها قذفًا من فمه فكأنما هي لفظة لها صوتُ جرمٍ محسوس. فمثلت صوتا مصحوبا بنفثة صدرية ... وقورٌ وربعان الشباب ... ،في هذا البيت يجلِّي منها صفتين : الوقاروهوخلق يدعو صاحبه إلى ترك مايشينه من اللهو وغيره ولفظة (وقور) لا تناسب معاني الأبيات ولكن جلبها هنا إحساسٌ خفيٌ يحسه بنفسه وإن كان ينازعه إليه ميل، ولكن هذا الوقار لا يلبث مع هذه الغادة أن يتوارى أما م جاذبٍ فطري تدعو إليه سطوة الشباب وعنفوانه ، فنجد أنها [تأرِن] أي تنشط للعبث واللهو، ويزيد الصورة جمالاً وتأثيرًا حين يشبه نشاطها ولهوها بقفزات المهر فهي تلهو بخيلاء وتثنٍ وتمايل في عَدَوها وقفزها، فكأنها حين تنشط للهوى مهرةٌ تستفز الناظر بما تقوم به من حركات. تثير مكنون عشقه وتكوي جوانحه بالغنج والدل.

حالة العشق هذه التي سيطرت عليه ما هي إلا خاطرٌ خطرلا يليق بمن هو مثله لهذا نجد أنه يتجاوزها إلى الحديث عما يتصف به من خصالٍ كريمة ،فيحدِّث عن قيادته الكتائب معبرًا عن هذا بصيغة المبالغة [جرَّار] وأنَّ هذه الكتائب اعتاد قومي ظفرها. ويقرن هذا بما يلزم القائد المقدام : فأظمأ حتى ترتوي ... ،وفي هذا البيت يفصح عن شيءٍ من مفاخره وعظيم جَلَده في الحروب؛فهولا يرد الماء ويتجرع شدة الظمأ حتى يروَّي السيوف والقنا من دماء الأعداء، كذلك هو لا يلتفت إلى الأكل حتى يرى أنَّ الذئاب والنسور شبعت من لحوم الأعداء الذين جندلهم في ساحة المعركة.

ومن شيمته وكما ل خلقه في الحرب أنّه لا يغير على قبيلة تركها رجالها وخلفوا النساء،حتى الرجال لا يغير عليهم غدرا وإنما لكمال شجاعته وفرط إقدامه وثقته بنفسه يخبر الأعداء بأنه سيغير عليهم .

وساحبة الأذيال ... وهي صورة لفتاة منعمة وقعت في الأسر فهو يذكر من خلقه أنه أحسن إليها، وهشَّ عند لقائها ثم رد عليها ماغنم من أهلها ، وحفظتُ عفتها فلم أكشف سترها.

[وساحبة الأذيال] يكنى بها عن المرأة المترفة كقولهم : (نؤوم الضحى) قال امرؤالقيس:

وتُضْحي فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

ومما أرى أنَّه يعاب على شيم الشاعر أنه جعل لحبيبته أكثر من محبوب فهو بهذا يبتذلها، وكأنها من بائعات الهوى لا من العفيفات ، وذلك لقولها:

تسائلني: منْ أنتَ ؟ وهي عليمةٌ ، وَهَلْ بِفَتىً مِثْلي عَلى حَالِهِ نُكرُ؟

فقلتُ كما شاءتْ ، وشاءَ لها الهوى: قَتِيلُكِ! قالَتْ: أيّهُمْ؟ فهُمُ كُثرُ

فقولهاعن مقتوليها المفتونين بحبها : إنهم كثر فيه مهمز لهذه المحبوبة،ونقص في أنفة الشاعر.

وأختم اختياري لأبيات أبي فراس ـ رحمه الله ـ بفخره بقومه وأنهم أناس لا يليق بهم إلا الصدارة والرئاسة فإن لم يكن فالموت أهون علينا من أن نرضى بأذناب المجالس.

وأخيرا فإنَّ من أجمل جمال القصيدة أنَّ أبا فراس تغزل فأبدع وفخر فأجاد ؛ وهذا دليل على أنه ملك ناصية البيان ، فلم يعجزه فنٌ عن فن.

من أسرار العربية

المفتتح

[... أنَّ كثيرًا من المسلمين قد عرفوا تلك الألسنة وهم من أهل البراعة فيها وفي العربية،فقد وقفوا على أنَّه ليس فيها من التفاضل والفصاحة مايقع في العربية]

الباقلاني رحمه الله

[لغة العرب تامة الحروف... ونعتبر من ذلك باللغة الفارسية لأنا طُبعنا عليها ونشأنا فيها على أنا تدبرنا سائر اللغات فوجدنا فيها مثل ماذكرنا من الزيادة والنقصان،الذي هو العيب البين والشين الظاهر]

وقال عن النقصان والزيادة في سائر اللغات : [وإذا اعتبرت سائر اللغات والكتابات وجدت فيها من الزيادة والنقصان مثل هذا أوقريبا منه فقد ناظرت عليه قوما عرفوا العبرانية والسريانية فوجدت الأمر قريبا مما ذكرنا]

أبو حاتم الرازي رحمه الله في كتابه
كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية.

يقول عبد القاهر رحمه الله في دلائل الإعجاز:(لو أردنا الموازنة بين لغتين كالعربية والفارسية، ساغ لنا أن نجعل لفظة [رجل] أدل على الآدمي الذكر من نظيره في الفارسية) يقول هذا وهومن أصل فارسي أي أنَّه خبر اللغتين.

:{... وعند المقارنة مع بلاغة أبسط أمي عربي تبدو اللغة الإنجليزية التي ينطق بها شخص أمريكي عادي نوعا من الهمهمات المتناثرة"

رفائيل بتي

وينبغي التنبه هنا إلى أنه لا ينبغي النظر إلى مسألة المحافظة والتطور على أنها مسألة قومية ففي هذا تجن على البحث العلمي

رمزي منير بعلبكي

لا يمكن للكاتب الإنجليزي الرجوع إلى أبعدمن أواخر القرن السادس عشر، في حين يمكن في العربية أن يعود الكاتب العربي إلى القرن السابع الميلادي... فالكلمة التي لم تستعمل منذ أن كان أجداد المجمعيين الفرنسيين يتلفعون بجلود الدببة لا تزلا حية بين دفتي المعجم

ديفد جستس،/كتاب محاسن العربية في المرآة الغربية

من الشواهد على أسرار العربية

١

كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية

لأبي حاتم أحمد بن حمدان الرازي

٣٢٢هـ رحمه الله

تحقيق / حسين الهَمَداني

قال : [لغة العرب تامة الحروف... وسائر اللغات فيها زيادة حروف مولدة وينقص عنها حروف هي أصلية ، ونعتبر من ذلك باللغة الفارسية لأنا طُبعنا عليها ونشأنا فيها ،على أنا تدبرنا سائر اللغات فوجدناها في مثل ماذكرنا من الزيادة والنقصان]

ثم قال : [النقصان والزيادة في اللغات] وحيث إنه ـ كما قال عن نفسه ـ إنه طُبع على الفارسية، وكلامه عنها كلام عالم متدبر فقد قال: وسائر اللغات نقصت وزادت مثل اللغة الفارسية ، فإنها قصرت عن العين و الغين والحاء والقاف والطاء والظاء والصاد والضاد والذال والثاء ،حتى لا يوجد في لغتهم الأصلية كلام يُتكلم به على هذه الحروف] فهذه عشرة حروف أثبت أبو حاتم خلو اللغة الفارسية الأصلية منها ؛ ونقص الحروف سيتولد منه قصور في الألفاظ الدارجة في هذا اللسان. وقال [... وإذا اعتبرت سائر اللغات والكتابات وجدت فيها من الزيادة والنقصان مثل هذا أوقريبا منه . فقد ناظرت عليه قوما عرفوا العبرانية والسريانية فوجدت الأمر قريبا مما ذكرنا]

قال : [... إنَّ العرب قالت في الجراحات لما كان بالسيف ضربة وبالرمح طعنة وبالسهم رَشْقَة وبالسكين وجأة ،وبالحجر شَدْخة وبالسوط تقنيع ، فاكتفوا بذكر هذه الجراحات عن ذكر السلاح ، وليس هذا لسا ئرالأمم حتى يذكروا السلاح المعمول به . واختصرت العرب هذه الألفاظ اقتصاراً عليها من ذكر الآلة المستعملة]

في النحو والإعراب نقل عن أبي عبيد القاسم بن سلاَّم رحمه الله : {للعرب في كلامها علامات لايشركهم فيها أحد من الأمم نعلمه ، منها إدخالهم الألف واللام في أول الاسم} {... بل خصت هذه اللغة بأنَّ أنشأ الله لها أقوامًا فتحوا لها هذه الأبواب من النحو ... ثم لهذه اللغة العروض التي يقوم بها الشعر }ثم تحدث عن فضل الشعر ومنزلته عند العرب وقال عن الفرس : { والدليل على أنَّ الشعر لم يكن في العجم أنَّ الشاعر لا يوجد له اسم في الفارسية وكذلك الشعر لا اسم له إلا بالعربية ... ولا ديوان له عند العجم مثل ديوان الشعر عند العرب }

ونزيد ثقتنا برأي أبي حاتم حين نقرأ له مثل { ونعتبر من ذلك باللغة الفارسية لأنا طُبعنا عليها ونشأنا فيها} وقوله :{على أنا تدبرنا سائر اللغات فوجدناها في مثل ماذكرنا من الزيادة

والنقصان} وهذا رأي تمخض عن دراسة وموازنة بين اللغات، والرأي الناتج عن مثل هذه الموازنة هوما أعوِّل عليه في هذه النظرات.

وقال : {قوام العربية وبنيتها بالحساب وقد ذُكر أنَّ لغة العرب بنيت على ثمانية وعشرين حرفا وسائر اللغات على اثنين وعشرين حرفا... فإن قال قائل إن الزيادة والنقصان وقعا في لغة العرب وإن التمام في سائر اللغات ، وإن الحروف التامة هي التي بنيت عليها سائر اللغات ودارت عليها ؛ قلنا : المعيار بيننا وبينهم الحساب ، والحساب هو الشاهد العدل الذي اتفقت عليه الأمم ... والأمم كلها متفقة على أصوله أنه آحاد وعشرات ومئون وألوف ... وهذه الأصول مبنية على الحروف الثمانية والعشرين فسموا" أ"واحدًا و"ب " اثنين و "ج " ثلاثة }ثم ذكر تفصيلها حتى أنهى أبجد هوز . ثم قال : { وصارت الحروف الثمانية والعشرون التي بنيت عليها لغة العرب وفاءً لأصول الحساب كلها ... فهذا الدليل الواضح والشاهد العدل على كمال لغة العرب ... لا يقدر على دفعه إلا مباهت معاند ومتعصب حاسد ...

وللعربية مع هذا الكمال فضائل ليست لسائر اللغات . فإنَّ لها قانونا يُرجَع إليه فيها ومعيارا يعتبر به ، ومقياسا يقاس عليه . فإذا شردعنهم حرف أو اعوجَّ عن سنته أو اشتبه معناه ، رجعوا إلى قانونهم ووزنوه بمعيارهم ، واستعانوا عليه بمقياسهم ،فأقاموا درأه وقوموا عِوجه . لكي لا يبطل معاني الأسماء ، فتمحق عن اللغة وتدرُس كما درست عن سائر اللغات. فقد بطلت عن اللغة الفارسية أسامي أشياء كثيرة حين غلبت عليها العربية ، فلا يكاد يوجد لها اسم بالفارسية، ولا يعرف ذلك الشيء حتى يذكر بلسان العرب ، مثل قولهم الحق والباطل، والصواب والخطأ، والحلال والحرام وغير ذلك ممالم يوجد له اسم بالفارسية ،وهذا الخلل قد دخل سائر اللغات }

وقوله: (....فتمحق عن اللغة وتدرُس كما درست عن سائر اللغات ... وهذا الخلل قد دخل سائر اللغات) هذا متوافق مع مصطلح " احتفظت العربية بكذا "

٢

كتاب التنبيه عل حدوث التصحيف

حمزة بن الحسن الأصفهاني رحمه الله

٢٨٠ ـ ٣٦٠هـ

ص٩٧ذكر علماء الآزادمردية : { أنهم ألفوا لغات جميع الأمم في الكمية على ماكانوا ناطقين بها وعلى الجبليَّة في مبدأ الكون لا يتولد فيها الزيادات والنماء على مرور الأزمان وتصرم الليالي والأيام وإنهم وجدوا العربية على الضد من سائر لغات الأمم لما يتولد فيها مرة بعد أخرى. وأنَّ المولد لها قرائح الشعراء الذي هم أمراء الكلام بالضرورة التي تمر بهم في المضايق التي يُدفعون إليها عند حصرة المعاني}

أقول : واللغات الأخرى فيها شعر وفيها شعراء إلاأنَّ اللغة العربية أكثر مرونة من سائر اللغات فلولا أنها لغة طيِّعة لما ظفروا بشئ من الزيادات ، ومنه يتبين أنَّ شعراء العربية أقدر من غيرهم على التوليد عند الحاجة لما في لغتهم من القابلية.

الآزادمردية لقب كان يطلق على شعوبية الفرس

٣

الخصائص لابن جني٣٩٢هـ

رحمه الله

تحقيق عبد الحكيم بن محمد.

وهذا ابن جني ـ رحمه الله ـ وهو المتمكن من اللسان اليوناني وعاش متتلمذا على شيخه أبي علي الفارسي ـ رحمه الله ـ وهوالآخرمتمكن من اللسان الفارسي يبرز في كتابه [الخصائص] جملة من الأسرار التي اختص الله بها العربية، ويمهد لبعض هذه الأسرار بكلام يؤكد فيه اطمئنانه إلى صواب رأيه القائل إن العرب لم تتحدث بهذه اللغة وتتخذ الحركات فارقة بين معانيها أنّ هذا لم يكن اتفاقًا ومصادفة ولاعن مواضعة وإنما الأمر إلهامٌ وتوفيق من الله ؛ وأدلته على هذا هي :ج١ص٢١٠

١ـ وجود هذا في كل لغة من لغاتهم .

٢ـ وجودهذا عند كل قوم منهم.

٣ـ أن هذا التميز لم يختلف ولم ينتقض أويتهاجرمع وجود دواعي الاختلاف لهذا اللسان من كثرتهم وسعة بلادهم وطول زمان تحدثهم في هذه اللغة وجريانها عل ألسنتهم ، ومادام الأمرهكذافلابد أن يكونوا له مريدين وفيه معنيين.

٤ـ اطراد وتوافق حركات الإعراب لديهم من رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المجرور.

وبعد أن أورد ـ رحمه الله ـ هذا قال مستفهما استفهام تعجب وإنكار: فهل يحسن بذي لب أن يعتقد أن هذا كله اتفاق وتوارد اتُجِه ؟

ولا ننسى أنَّ حالة العرب العلمية ليست بذاك القدر الذي يمكِّنهم من إبداع هذه القواعد؛ فهم أمةٌ أمية الجهل فيها ضاربٌ أطنابه، ومن دواعي الاختلاف التي لم يشر إليه ابن جني أنفة كل قبيلة أن تنقاد إلى رأي قبيلة أخرى؛ فالأمر إذن فيه سرٌ إلهي جعلهم يتفقون على هذا. وإلا ذهبت القواعد متعددةً بتعدد القبائل والبطون.

ثم احترس من اعتراض قد يطرأ من معترض فقال: [فإن قلت فما تنكر أن يكون ذلك شيئا طُبِعوا عليه وأُجيئوا إليه من غير قصدمنهم لِعِللَه ، ولا لقصد من القصود التي تنسبها إليهم في قوانينه وأغراضه ، بل لأنَّ آخرًا منهم حذا على مانهج الأول فقال به، وقام الأول للثاني في كونه إماما له ،فيه مقام من هدى الأول إليه ، وبعثه عليه ملَكا كان أوخاطرأ.

قيل لن يخلو ذلك أن يكون خبرًا رُسلِوبه، أو تيقظا تنبهوا على وجه الحكمة فيه.

فإن كان وحيا أو مايجري مجراه فهو أنبه له وأذهب في شرف الحال به؛لأنّ الله سبحانه إنما هداهم لذلك ووقفهم عليه ، لأنَّ في طباعهم قبولاً له،وانطواءً على صحة الوضع فيه]

قوله:[مَلَكا كان أوخاطرأ] يقصد بالملك أن يكون الأمر توقيفا من الله،وخاطرا أي إلهاما.

ص٢١٤ج ١اصطنع محاجة ممن لا يرى فضلاً للعربية على العجمية ، وأنَّ كل قومٍ هم بلغتهم مولعون ولها مفضلون ثم قال : [قداعتبرنا ما تقوله ، فوجدنا الأمر فيه بضده ،وذلك أنا نسأل علماء العربية ممن أصله أعجمي وقد تدرب بلغته قبل استعرابه ،عن حال اللغتين ،فلا يجمع بينهما بل لا يقبل السؤال عن ذلك، لبعده في نفسه ، وتقدم لطف العربية في رأيه وحسه. سألت أباعلي - رضي الله عنه - عن ذلك فكان جوابه عنه نحوًا مما حكيته]

ثم قال ص٢١٥ : [... وأيضا فإنَّ العجم العلماء بلغة العرب وإن لم يكونوا علماء بلغة العجم فإن قواهم في العربية تؤيد معرفتهم بالعجمية وتؤنسهم بها، وتزيد في تنبيههم على أحوالها ؛ لاشتراك العلوم اللغوية واشتباكها وتراميها إلى الغاية الجامعة لمعانيها. ولم نرأحدًامن أشياخنا فيها - كأبي حاتم ، وبُنْدار،وأبي علي وفلان وفلان - يسوون بينهما ولا يقربون بين حاليهما، وكأنَّ هذا موضع ليس للخلاف فيه مجال، لوضوحه عند الكافة، وإنما أوردنا منه هذا القدر احتياطًا به واستظهارا على موردله عسى أن يورده]

ثم أورد دليلاً عقليا ناتجا عن استقراء وملاحظة لهذه اللغة العظيمة يبين ثقته بما ذهب إليه فقال : [ولو كانت هذه اللغة حشوًا مكيلا وحثوًا مهيلا ، لكثر خلافها وتعادت أوصافها؛ فجاء عنهم جر الفاعل ورفع المضاف إليه والمفعول به،والجزم بحروف النصب والنصب بحروف الجزم ؛ بل جاء عنهم الكلام سدى غير محصل وغُفلا من الإعراب ، ولاستُغنيَ بإرساله وإهماله عن إقامة إعرابه ، والكلف الظاهربالمحامَّة على طرد أحكامه]

ذكر دليلين ص١١٦ .غائبا وحاضرا يدلان على صحة ما ذهب إليه من أنَّ العرب أحسوا ما أحسسنا وقصدوامانسبنا إليهم فقال : [فالغائب ماكانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب (ووجوهها) ونضطر إلى معرفته من أغراضها وقصودها : من استخفافها شيئا أواستثقاله ،وتقبله أو إنكاره والأنس به والاستيحاش منه ، والرضا به ، أو التعجب من قائله ،وغير ذلك من الأحوال الشاهدة بالقصود ،بل الحالفة على مافي النفوس،ألا ترى إلى قوله:

تقول ـ وصكت وجهها بيمينها أبعلي هذا بالرحى المتقاعسُ

فلو قال حاكيا عنها: أبعلي هذا بالرحى المتقاعس ـ من غيرأن يذكر صكَّ الوجه ـ لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة ، لكنه لماحكى الحال فقال:(وصكت وجهها)عُلم بذلك قوة إنكارها ،وتعاظم الصورة لديها]

وقال عن الدليل الحاضر:ص٢٢٠ [وأما ماروي لنا فكثير، منه ماحكى الأصمعي عن أبي عمرو قال : سمعت رجلا من اليمن يقول : فلان لغوب جاءته كتابي فاحتقرها .فقلت له: أتقول جاءته كتابي ! قال نعم أليس هي بصحيفة ، أفتُراك تريد من أبي عمرو وطبقته وقد نظروا،وتدبروا،وقاسوا،وتصرفوا أن يسمعوا أعرابيا جافيا غُفلا،يعلل بهذه العلة،ويحتج لتأنيث المذكر بما ذكره ، فلا (يهتاجوا) هم لمثله ولايسلكوافيه طريقته فيقولوا : فعلواكذاالكذا، وصنعوا كذاالكذا،وقد شرع لهم العربي ذلك ووقفهم على سمته وأَمَّه]

وقال ف ج٢ص ٧٤:

<u>باب في تلاقي المعاني على اختلاف الأصول و المباني</u>

نحتاج هنا إلى تمهيدٍ مختصر يكون إيضاحًا لمراد أبي الفتح رحمه الله ، فأقول: هذا الباب لم تأت فائدته بذكر المسمى يكون له أسماء كثيرة وإنما ليكشف عن جانب بلاغي وتأصيل لغوي وهوأنّ أصل الاسم يفضي إلى معنى صاحبه وماسمي به فهناك علاقة معنوية مستكنة بين الاسم والمسمى فهذه اللغة من عجائبها أنها لم تطلق بها الأسماء على المسميات ارتجالا ، مما يشير إلى أنها لغةٌ توقيفيةٌ ملهَمة وأنها لسانٌ محكم.

وهذا الباب يختلف عن البحث في تعدد الأسماء لمسمى واحد كأسماء السيف والأسد ؛لأنَّ هذه أسماء لذوات ،وهذا الباب يكشف العلائق بين أسماء لمعاني كما أنَّ هذه المعاني يفضي بعضها إلى بعض، أمّا أسماء الذوات فليس لها هذه الميزة ؛ فالسيف لا علاقة من حيث الإفضاء بينه وبين اليماني أو المهند، وكذلك أسماء الأسد ومشابههما من ذوات الأسماء المتعددة.

والذي بهر أبا الفتح ـ رحمه الله ـ في هذا الصدد أمران : تعدد وكثرة الأسماء للمعنى الواحد ، وأنَّ كل معنى من هذه المعنى متولد ويتولد منه معنى آخر، وهذاسرمن أسرار العربية ينبأ عن سبب من أسباب اختصاصها بالقرآن الكريم خاصة إذا علمنا أنّه وشيخه متمكنان من أكثر من لسان ، ما يمكنهما من إبراز الميزة بعد الموازنة.وأنَّ هذه المعاني تعود إلى أصل واحد . وإليك إيجازهذه العلائق.

قال مفتتحًا هذا الفصل : [هذا فصل من العربية حسنٌ كثير المنفعة ، قوي الدلالة على شرف هذه اللغة ؛ وذلك أن تجد للمعنى الواحد أسماء كثيرة فتبحث عن أصل كل اسم منها،فتجده مفضيَ المعنى إلى معنى صاحبه]

ثم عدد مجموعة من المعاني فقال:

١ـ و ذلك كقولهم : (خُلُق الإنسان) فهو (فُعُل) من خلَّقتُ الشيء أي ملَّستُه ، ومنه صخرة خلقاء للملساء ... والخليقة فعيلة منه ، وقد كثرت فعيلة في هذا الموضع وهو قولهم الطبيعة وهي من طبعت الشيء أي (قررته) على أمر ثبت عليه ، ثم عد مجموعة من المتلاقيات في المعنى وهي:النحيتة، الغريزة ،النقيبة ، النحيزة ، السجية،الطريقة ، السجيحة ،الوتيرة ، السليقة .

وبعد أن شرح هذه الألفاظ وبين معانيها ختم بما يدل على تلاقي معانيها فقال بأنه : [التمرين على الشيء وتليين القوي ليُصحب وينجذب] ثم عقب بما أثار إعجابه فقال: [فاعجب للطف صنع الباري سبحانه في أن طبع الناس على هذا وأمكنهم من ترتيبه وتنزيله ، وهداهم للتواضع عليه وتقريره]

٢ـ من ذلك قولهم للقطعة من المسك (الصِوار) ... فقيل له (صِوار) لأنه من (فِعال) من صاره يصوره إذا عطفه وثناه. قال تعلى :{ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ} (٢٦٠) سورة البقرة ، وكذلك نجد معنى المسك وذلك أنه (فِعْل) من أمسكت الشيء ،كأنه لطيب رائحته يمسك الحاسة عليه ... ومنه عندي قولهم للجلد: (المَسْك) هوفَعْل من هذا الموضع ألا ترى أنه يمسك ماتحته ... فقولهم إذن مسك يلاقي معناه معنى الصواروإن كانا من أصلين مختلفين وبناء ين متباينين.أقول : فالمعنى الجامع هنا هو الإمساك والجمع .

٣ـ قال: [ومن ذلك قولهم : صبي وصبية وطِفل وطِفلة وغلام وجارية، وكله للين والانجذاب وترك الشدة والاعتياص. وذلك أنَّ صبيا من صبوت إلى الشيء إذا ملت إليه ولم تستعصم دونه ، وكذلك الطفل هومن لفظ طفلّتِ الشمس إلى الغروب أي مالت إليه وانجذبت نحوه ... ومنه قيل :فلان طفيلي ؛ وذلك أنه يميل إلى الطعام ... وغلام من الغُلْمة وهي اللين وضعفة العصمة ، وكذلك قالوا جارية فهي فاعلة من جرى الماء وغيره. فالمعنى الجامع هنا هو اللين واللطافة.

وقال في ختم هذه الفقرة : [فهذا ونحوه من خصائص هذه اللغة الشريفة اللطيفة]

٤ـ ومن ذلك قالوا : ناقة ، كما قالوا : جمل... والتقاء معانيهما أنَّ الناقة كانت عندهم مما يتحسَّنون به ويتباهون بملكه فهي (فَعَلة) من قولهم تنوقت في الشيء إذا أحكمته وتخيرته ... وعلى هذا قالوا (جمل) لأنّ هذا (فَعَل) من الجمال كما أن تلك من تنوقت . أقول إن المعنى الجامع هنا هو الأنس والجمال.

٥ـ قال : ومن ذلك قولهم : الفضة سميت بذلك لانفضاض أجزائها،وتفرقها في تراب معدنها كذا أصلها وإن كانت فيما بعد قدتصفَّى وتهذب وتسبك .وقيل لها فضة كما قيل لها لُجين ؛وذلك لأنها مادامت في تراب معدنها فهي ملتزقة في التراب متلجنة به.... الذهب لأنه مادام كذلك غير مصفى فهو كالذاهب ؛لأن مافيه من التراب كالمستهلك له... ولهذا قالواللجام من الفضة (الغَرَب) وهو (فَعَل) من الشيء الغريب.

أقول إن المعنى الجامع هنا هو الندرة والذهاب والغرابة .

ثم قال خاتما هذه الفقرة : [فالتأتي والتلطف في جميع هذه الأشياء وضمها وملاءمة ذات بينها (خاص اللغة) وسرها وطلاوتها الرائقة وجوهرها . فأما حفظها ساذجة وقمشها محطوبة هِرجة فنعوذ بالله منه ، ونرغب بما آتاناه سبحانه عنه.

أقول القمش : هو الجمع لماعلى وجه الأرض من فتات الأشياء ؛ ،وأراذل الناس يقال لهم قُماش.

٦ـ قال : وقال أبوعلي ـ رحمه الله ـ قيل له حبي كما قيل له سحاب . تفسيره أنَّ حبيا (فعيل) من حبا يحبو.وكأنَّ السحاب لثقله يحبو حبوًا كماقيل سحاب وهو(فَعَال) من سحب ؛ لأنه يسحب أهدابه .

أقول إنَّ المعنى الجامع هو الثقل.

٧ـ قال : ومن ذلك قولهم في أسماء الحاجة:الحاجة و الحوجاء ،واللوجاء ،والإرْب،والإربة ،والمأرُبة ، اللُبَانة ،والتُلاوة بقية الحاجة... وأنت تجد مع ذلك من اختلاف أصولها ومبانيها جميعها راجعا إلى موضع واحد ،ومخطوما بمعنى لا يختلف وهو الإقامة على الشيء والتشبث به.

إذن المعنى الجامع هو: الإقامة والتشبث.

٨ـ ومن ذلك ماجاء عنهم في الرجل الحافظ للمال الحسن الرِعية له والقيام عليه يقال : هو خال مال ، وخائل مال ،وصدى مال ،وسُرسُورمال ، وسؤبان مال ، ومِحجن مال وإزاء مال ،وبِلْومال ،و حِبْل مال ،وعِسل مال ، وزِرمال .وجميع ذلك راجع إلى الحفظ لها والمعرفة بها.

أقول إن المال يجوز تأنيثه . والمعنى الجامع هنا هو الحفظ .

٩ـ ومن ذلك قولهم للدم :الجَدِيَّة ،والبصيرة ؛ فالدم من الدُميَّة لفظا ومعنى.وذلك أنَّ الدُميّة إنما هي للعين والبصر. .. ألا ترى أنَّ الرمية إذا غابت عن الرامي استدل عليها بدمها ...]

ثم قال : [وهذا مذهب في هذه اللغة طريف وهو فقهها وجامع معانيها وضام نشرها... وكان أبو علي ـ رحمه الله ـ يستحسن هذا الموضع جدًا ... وهذا باب إنما يجمع بين بعضه وبعض من طريق المعاني مجردة من الألفاظ ؛ وليس كالاشتقاق الذي هو من لفظ واحد ... إنما يعتنق فيه الفكرُ المعانيَ غير منبهة عليها الألفاظ.؛ فهو أشرف الصنعتين وأعلى المأخذين فتفطن له وتأن لجمعه ... ويريك من حكم الباري ـ عز اسمه ـ ماتقف تحته وتسلم لعظمة الصنعة فيه ،وما أودعته أحضانه ونواحيه .

أقول: إنَّ الشيخ أبا الفتح ـ رحمه الله ـ حين يعالج هذه المسألة بهذا المنهج لأنه إلى كون اللغة توقيفية أميل؛ لذلك قال مصطفى مندور ـ رحمه الله ـ في كتابه اللغة بين العقل والمغامرة ص٤٥:"... أو لنقل إنَّ فرط حساسيتهم للألفاظ ودلالتها جعلهم يميلون في أغلب مراجعهم إلى أنها توقيفية"

وقال في ج٢ص٩٥:

باب تصاقب الألفاظ لتعاقب المعاني

أقول: التصاقب هو التقارب.

قال :(وهذا غور من العربية لا ينتصف منه ولا يكاد يحاط به، وأكثر كلام العرب عليه وإن كان غُفلا مسهوًا عنه وهو على أضرب.ثم ذكر على هذه الأضرب أمثلة منها:

أ ـ قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا} (٨٣) سورة مريم.أي تزعجهم وتقلقهم فهذا في معنى تهزهم هزا،والهمزة أخت الهاء فتقارَبَ اللفظان لتقارب المعنيين .

ب ـ [واستعملوا تركيب (ح ب ل) و (ح ب ن) و(ح ب ر) لتقاربهما في موضع واحدوهوالالتئام والتماسك.

ج ـ وقالوا :الغدر ، كما قالوا الختل ؛ والمعنيان متقاربان واللفظان متراسلان ؛ فذاك من (غ د ر) وهذا من (خ ت ل)

ومعنى قوله (متراسلان) أي أنَّ كل واحد منهما ينوب مناب الآخر في أداء المعنى المطلوب.فكأنهما يتناجيان ليعتقبا الأمكنة في النظم .

وقال في ج٢ص١٠٤ : [... فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ونهج متلئب عند عارفيه مأمون وذلك أنهم كثيرًا مايجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها ، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها وذلك أكثر مما نقدره وأضعاف مانستشعره ومن ذلك قولهم : خضم وقضم فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء... والقضم للصلب اليابس نحو قضمت الدابة شعيرها]

متلئب : طريق مستقيم مأموم مسلوك مقصود.

وهذا سرٌ في بنية اللفظة العربية وهو اختيار الصوت المعبر عن المعنى.

وقال في ج٢ص١١٠: ومن طريف ما مربي في هذه اللغة التي لا يكاد يعلم بعدها، ولا يحاط بقاصيها، ازدحام الدال والتاء والطاء والراء واللام والنون إذا مازجتهن الفاء على التقديم والتأخير فأكثر أحوالها ومجموع معانيها أنها للوهن والضعف ونحوهما .

من ذلك (الدالف)للشيخ الضعيف والشيء التالف ... وختم حديثه عن هذا بقوله : (ولو شئت لكتبت من مثله أوراقا مئين فأبه له ولاطفه ولاتجفُ عليه فيعرض عنك ولا يبها بك) أقول ليت أبا الفتح ـ رحمه الله ـ كتب أوراقا مئين.

قال رحمه الله في حديثه عن قوله تعالى{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا } (٣١) سورة البقرة. { ... على أنه قد فسرهذابأن قيل : إنَّ الله سبحانه علم آدم أسماء جميع المخلوقات ، بجميع اللغات: العربية ، والفارسية،السريانية والعبرانية،والرومية وغير ذلك من سائر اللغات ،فكان آدم وولده يتكلمون بها ، ثم إن ولده تفرقوا في الدنيا وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه ، واضمحل عنه ماسواها لبعد عهدهم بها، وإذا كان الخبر الصحيح قد ورد بهذا وجب الانطواء على القول به}

أقول : إن صح هذا فليست هناك لغةُ أمٌ تعود إليها سائر اللغات ،وهذا أيضا ينفي أن تكون اللغات غير العربية لهجاتٍ متولدةً منها. وقوله ــ رحمه الله ــ بأن قيل تصدير هذا الاحتمال بعبارة التمريض"قيل" يشير إلى أن ابن جني ليس على يقينٍ من هذا، وقوله: "علم آدم أسماء جميع المخلوقات " هذا ظاهر الدلالة بتعليم آدم كل شيء

٤

مع بن فارس في كتابه (الصاحبي)

تحقيق أحمد صقر رحمهما الله

ص١٧وما بعدها عقد بابا عنوانه[باب في أنَّ اللغة العربية أفضل اللغات وأوسعها]

.فافتتحه بقوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} {عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ} {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}(١٩٢) (١٩٣) (١٩٤) (١٩٥) سورة الشعراء .

ثم قال بدليل مستنبط من النقل : { ... فلما خص جل ثناؤه اللسان العربي بالبيان عُلم أنَّ سائر اللغات قاصرةٌ عنه وواقعة دونه}

أقول : إنّ هذه حقيقة تشربتها النفوس ولكنَّ الشرط الذي بنيتُ عليه أدلة هذاالبحث هومعرفة السر الذي اختص الله ـ جل وعزـ به هذه اللغة واختارها بحكمته لغةً للقرآن . ثم إنَّ ثناء الله وتزكيته لهذا اللسان ليست دليل قصور بالألسنة غيره؛ فليس من لوازم كرم زيد بخل عمرو.

بعد ذلك عنَّف على من يقصرون البيان على أن يعرب المرء عن نفسه ليفهم السامع وقال عن هذا الفهم للبيان { ... فهذه أخس مراتب البيان } وغلَّط من قال إنَّ سائر اللغات تبين إبانة العربية وجعل قولهم هذا مدخلا لذكر ما رآه وبان له من أسرار العربية فقال:{ لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه في اللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ،ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة ، كذلك الأسد والفرس وغيرها من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة ، فأين هذا من ذاك ؟ وأين لسائر اللغات من السعة ماللغة العرب ؟ هذا مالا خفاء به على ذي نهية }أقول هذا السر مبني على استقراء وموازنة مع لغة أخرى.

وأقول إنَّ هذا السر وهو سعة اللغة ورحابتها يعطي أهل لسانها السعة في اختيار ما يناسب نظم الجمل من ألفاظ اللغة للتعبير عن مرادهم فيتهيأ لهم بيان لايستطيعه غيرهم .

احتج رحمه الله بالقرآن الكريم ليبين سمو هذه اللغة ،ولكي لا يقال إنَّ القرآن كلام الله ولاتمكن مضاهاته ، قال: { لكنَّ الشعراء قد يومئون إيماءً ويأتون بالكلام الذي لوأراد مريد نقله لاعتاص }

ثم ختم هذا السر بقوله : { ولوأرادمعبر بالأعجمية أن يعبر عن الغنيمة والإخفاق واليقين والشك ... لعيَّ به والله جل ثناؤه أعلم حيث يجعل الفضل}

بعدهذا عدد أسرارًا رأى أنَّ لغة العرب اختصت بها فقال:

١ـ ومما أختصت به العرب بعد الذي تقدم ذُكرُناه قلبهم الحروف عن جهاتها ليكون الثاني أخف من الأول، نحو قولهم "ميعاد" ولم يقولوا " موعاد" وهما من الوعد إلا أن اللفظ الثاني أخف.

٢ـ تركهم الجمع بين الساكنين وقد تجتمع في لغة العجم ثلاث سواكن.

٣ـ ومنه قولهم : { ياحار }ميلاً إلى التخفيف. أقول : هذاهو الترخيم وهو حذف آخر المنادى. قال ابن مالك رحمه الله:

ترخيما احذف آخر المنادى كيا سعا فيمن دعا سعادا

٤ـ ومنه اختلاسهم الحركات في مثل:

فاليوم أشربْ غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

والاختلاس المقصود هنا هو جزم الفعل أشربْ ،والأصل في هذا الموضع رفعه.

٥ـ ومنه الإدغام ،وتخفيف الكلمة بالحذف ، نحو : لم يكُ ، ولم أُبالِ .

٦ـ ومن ذلك إضمارهم الأفعال ، " أمرءًا اتقى الله" و " أمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك

أقول وهذا مذهب يجري في الإغراء والتحذير، أي الزم أمرءًا اتقى الله" و " أمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك

وقال في ص٣٠٩:وللعرب ماليس لغيرها فهم يفرقون بالحركات وغيرها من المعاني، يقولول"مِفتح "للآلة يفتح بها و" مَفتَح " لموضع الفتح.، وبعد أن أورد ألفاظا مشابهة لهذا قال ذاكرًا شيئا من أساليبهم :

ثم يقولون" هذا غلامًا أحسن منه رجلاً. يريدون الحال في شخص واحد. ويقولون "هذا غلامٌ أحسن منه رجلٌ " فهما شخصان.

أقول : أي أنَّ العرب إذا أرادوا وصفا لحال واحدة نصبوا ، وإذا أرادوا وصفا لحالين رفعوا؛ فمعنى الجملة في حال النصب أنّ هذا الموصوف ، حُسْنه وخَيْريتُه في كونه غلامًا ،لا في كونه رجلا ، ومثله أن تقول : هذا جنديا خير منه قائدا ؛ لأنه يُحسِن من الجندية مالا يحسن من القيادة،

ومعنى الجملة في حال الرفع أنَّ هذا المشار إليه كأنَّه مقطوع عما بعده ؛ فهي جملة تامة من مبتدأ وخبر هذا غلام ـ ثم تستأنف فتقول في جملة أخرى من مبتدأٍ وخبرٍ أيضا : أحسنُ منه رجلٌ.فكأنَّ الأصل أن نقول : الرجلُ أحسنُ ؛ ومثله قولنا : هذا قصرٌ أحسنُ منه كوخٌ.

هذا جانب من سر العربية في الحركات ،وواضح أنَّه يقصد الحركات الإعرابية والصرفية،ثم انتقل إلى سر التصريف ، وهو لا يقصد الصرف أي العلم الذي يدرس بُنية الكلمة،أو أصل اشتقاقها ، وإنما المقصود هو تصريف الكلمة على أحوال يتغير معها المعنى. فقال : [وأما التصريف فإنَّ من فاته علمه فاته المُعظَم ؛ لأننا نقول : "وَجَد "وهي كلمة مبهمة ، فإذا صرفنا أفصحت فقلنا في المال " وُجدا " وفي الضالة وجدانا ، وفي الغضب " موجِدة " وفي الحزن " وَجدًا " قال تعالى: {وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} (١٥) سورة الجن و وقال تعالى : { وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } (٩) سورة الحجرات. كيف تحول المعنى بالتصريف من العدل إلى الجور.

ويكون ذلك في الأسماء والأفعال فيقولون للطريق في الرمل : " خِبة " وللأرض المخصبة والمجدبة " خُبة وتقل في الأرض السهلة الخوارة : " خارت تخورخوراوخؤوراوخُوراوخُورانا، وفي الإنسان إذاضعف : خار، خورًا، وفي الثورخارخُوارًا " ... إلى غير ذلك من الكلام الذي لا يحصى]

أقول إنَّ هذا باب واسع وهو مبنى من مباني العربية بُني عليه كثيرمن كلام العرب، فأعطى اللغة رحابةً وسعة. وعلى هذا صُنفت المعاجم.

وقال في ص٤٥٠ :

بابٌ نظمٌ للعرب لا يقوله غيرهم

يقولون : " عاد فلان شيخا " وهولم يكن شيخا قط، وعاد الماء آجنا وهولم يكن آجنا قط. أقول الماء الآجن هو ماتغير طعمه ولونه.

قال ومثله : { يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ } (٧٠) سورة النحل،وهولم يمر في ذلك قط.

وقال في ص ٤٥٨

باب الإتباع

: [للعرب الإتباع وهوأن تُتْبع الكلمةُ الكلمةَ على وزنها إشباعًا وتأكيدا، وروي أنّ بعض العرب سئل عن ذلك فقال : هو شيء نتد به كلامنا .

وذلك قولهم : "ساغب لاغب " وهو " خب ضب " و" خراب يباب "ثم قال وقد شارك العجمُ العرب في هذا الباب. أقول إنَّ قوله هذا يدل على معرفة واستقراء للغة العجم وهذا الاستقراء هو مااتخذته دليلا على أنَّ ما ذكره ابن فارس إنما هو سرٌ في العربية ولا تشاركها فيه لغات العجم.

وقوله : نتد به كلامنا. أي نجعل بعض كلامنا وتدا لبعض فيثبته في اللسان ويُسيغه للسمع.

وقال في كتابه {مقاييس العربية} عند حديثه عن مادة " عرب " : أعرب الرجل عن نفسه إذابيَّن وأوضح ...فأما الأمة التي تسمى العرب فليس ببعيدٍ أن يكون سميت عربا من هذا القياس ؛ لأنَّ لسانها أعرب الألسنة ، وبيانها أجودُ البيان } إهـ

٥

مع إعجاز القرآن للباقلان ٤٠٢هـ

تحقيق السيد أحمد صقر رحمهما الله

فاضَلَ بين إعجاز القرآن من جهة وبين التوراة والإنجيل من جهة أخرى فقال : [ليس شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف، وإن كان معجزًا كالقرآن فيما يتضمن من الإخبار عن الغيوب ... ولمعنى آخر وهو أنَّ ذلك لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة مايقع في التفاضل الذي ينتهي إلى حدا لإعجاز...]

يبين الوجه الذي يراه في تفضيل اللسان العربي على سائر الألسنة فيقول : [يمكن بأنا لانجد في القدر الذي نعرفه من الألسنة ، للشيء الواحد ، من الأسماء مانعرفه من اللغة، وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على ماتتناوله العربية ، وكذلك التصرف في الاستعارات والإشارات ووجوها لاستعمالات البديعة]

وقال عن القرآن : [فلو كان يمكن لسان العجم إيراد مثل فصاحته ، لم يكن ليرفعه عن هذه المنزلة]

أورد جملةً من الأدلة يدلل فيها على فصاحة العربية و هيمنتهما على سائر الألسن.

١- أنَّ كثيرًا من المسلمين قد عرفوا تلك الألسنة وهم من أهل البراعة فيها وفي العربية،فقد وقفوا على أنَّه ليس فيها من التفاضل والفصاحة مايقع في العربية.

٢- ومعنى آخر وهوأنا لم نجد أهل التوراة والإنجيل ادعوا الإعجاز لكتابهم ، ولا ادعى لهم المسلمون فعلم أنَّ الإعجاز مما يختص به القرآن.

٣ـ أنَّ الشعر لا يتأتى في تلك الألسنة على ما قد اتفق في العربية ، وإن كان قد يتفق منها صنف أو أصناف ضيقة.

٤ـ لم يتفق فيها من البديع مايمكن وبتأتى في العربية .

٥ـ لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التي تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى في العربية.

٦ـ ولضيق ماسوى كلام العرب ، أولخروجه من الاعتدال يتكرر في بعض الألسنة الحرف الواحد في الكلمة الواحدة والكلمات المختلفة كثيرا، كنحو تكرر الطاء والسين في لسان يونان ، وكنحو الحروف الكثيرة التي هي اسم لشيء واحد في لسان الترك .

٦

فقه اللغة وسر العربية

لأبي منصور الثعالبي ٤٢٩هـ رحمه الله

تحقيق حَمدُ و طمَّاش

قرأت الكتاب فوجدته عقد لسر العربية تسعة وتسعين فصلاً، صدَّر معظمها بقوله : [ومن سنن العرب ...] ولكني لم أجد فيها إشارته إلى مايؤكد اختصاص العرب بهذه السنن لذلك تركت الاستشهاد بما رآه من هذه السنن ؛ فهو لم يجزم كما جزم الجاحظ و ابن جني وابن فارس والباقلاني رحمهم الله ، بأنَّ هذا مما تختص به العربية دون سواها من لغات العجم، ومما أكد لي أنَّه لم يجزم باختصاص العربية بهذه السنن أنه عنون الفصل الخامس والثمانين بقوله : للعرب فعلٌ لا يقوله غيرهم تقول عاد فلان شيخًا وهو لم يكن قط شيخا] وهذا السر سبقه إليه ابن فارس في كتابه الصاحبي وقد أشرت إليه في حديثي عن الصاحبي . فعلى هذا أقول لوتناهى إلى علمه رحمه الله مايجزم باختصاص العربية به دون سواها من الألسنة ما خص هذا الموضوع بهذا العنوان

٧

أسرار العربية

عبد الرحمن الأنبا ري ٥٧٧ هـ رحمه الله

دراسة وتحقيق محمد حسين شمس الدين

استهواني عنوانه وحين قرأته لم أجد فيه مايتوافق مع منهجي في إثبات خصائصَ للعربية وقد ذكر في فاتحة الكتاب مايبين منهجه فقال : [وبعد فقد ذكرت في هذا الكتاب الموسوم " بأسرار العربية " كثيرًا من مذاهب النحويين المتقدمين والمتأخرين من البصريين والكوفيين]

إذن يكون هدفه من هذه الأسرار إبانة العلل النحوية من حركات الإعراب وتفضيلٍ لسبب تسمية بعض المصطلحات، وهو كتابٌ يستقصي فيه المؤلف العلل النحوية للظاهرة أو اللفظة التي يتحدث عنها فهي أسرار النحو العربي ، ولكنه لم يعتنِ بالأسرار التي بنيت عليها كتابي هذا. وهي الأسرار التي اختصت بها لغة العرب

٨

مقدمة ابن خلدون ٨٠٨ هـ رحمه الله

تحقيق الأستاذ/ درويش الجو يدي

[....وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات، وأوضحها إبانة عن المقاصد؛ لدلالةِ غير الكلمات فيها على كثير من المعاني، مثل الحركات التي تعيِّن الفاعل من المفعول من المجرور؛ أعني المضاف، ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال - أي: الحركات - إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى، وليس يوجد ذلك إلاَّ في لغة العرب، وأما غيرها من اللغات، فكل معنى أو حال لا بُدَّ له من ألفاظ تَخصه بالدلالة؛ ولذلك نجد كلامَ العجم من مخاطباتهم أطول مما تقدره بكلام العرب، وهذا هو معنى قوله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((أوتيت جوامعَ الكلم، واختصر لي الكلام اختصارًا] ص٥٤٥ ـ ٥٤٦

هو يشير هنا إلى أنَّ اللغات الأخرى تفيد بكلماتها لا بحركاتها، بخلاف العربية التي تتغير معانيها تبعا لحركات الإعراب .

وقال :[... فصار للحروف في لغتهم والحركات والهيئات - أي: الأوضاع - اعتبارٌ في الدلالة على المقصود، غير متكلفين فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها، إنَّما هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول]

فالسر الذي وقف عليه ابن خلدون ـ رحمه الله ـ ورأه خاصا باللغة العربية هوتغير المعاني بتغير الحركات.

ويقصد بالحركات : الضمة والفتحة والكسرة وأما الهيئات فهي الأصوات الفارقة بين هذه الحركات. أو ماتكون علامة إعرابه بالحروف فتتغير هيئة اللفظة: أخوك ، أخيك ، أخاك ، مسلمون ، مسلمين. لم يرمِ ، لم يخشَ ، لم يستفد... إلخ

[ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال - أي: الحركات - إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى] الأفعال أي الأحداث .ومثال الحروف : إنَّ وأخواتها وإلا الاستثنائية.

٩

من أسرار اللغة في الكتاب والسنة

المؤلف

محمود بن محمد الطناحي رحمه الله

١٣٥٣- ١٤١٩هـ

المؤلف ـ رحمه الله ـ حصره في أسرار الغريب مما في الكتاب والسنة، وقد أوضح هدفه في المقدمة حيث قال:[وسنعرض في هذا الكتاب ـ بعون الله وتوفيقه ـ إلى شرح الغريب الوارد في القرآن الكريم وحديث الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم، وما قد يوجد منه في آثار الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين.

وهو مرتب في مواده على طريقة المعاجم.

١٠

كتاب

في اللهجات العربية

إبراهيم أنيس١٣٢٤ ـ ١٣٩٧ هـ رحمه الله

(يؤكد لنا المستشرقون أنّ اللغة العربية المألوفة لناقد احتفظت بعناصر قديمة ترجع إلى السامية الأم أكثر مما احتفظت به الساميات الأخرى ففيها من الأصوات ماليس في غيرها من اللغات السامية ، وفيها ظاهرة الإعراب ونظامه الكامل وفيها صيغ كثيرة لجموع التكسير ، وغير ذلك من ظواهر لغوية يؤكد الدارسون أنها كانت سائدة في السامية الأولى التي انحدرت منها كل اللغات السامية المعروفة الآن)

١١

كتاب

العبرية لهجة عربية عادية

دراسة لغوية مقارنة بين اللغة العربية والعبرية

سلامة سليم سلامة يوسف

استعرض الموطن الأساس للشعوب العادية [السامية] وعرض النظرية الخامسة عن هذا الموطن فقال : (... إذ يرى العالم شيرنجر الألماني وكايتاني الإيطالي وأيدهما كثيرمن المستشرقين ... وخلاصة

النظرية الخامسة هي أنَّ الجزيرة العربية تعد الموطن الأول ... وأنَّ اللغة العربية أصلح لغة تمثل خصائص اللغات العادية الأم)

١٢

فقه العربية المقارن

دراسات في أصوات العربية وصرفها ونحوها

على ضوء اللغات السامية

تأليف الدكتور/ رمزي منير بعلبكي

عقدمبحثًا مطولا باسم: الخصائص الصرفية والنحوية للعربية ص١٤١ ذكر فيه خمس عشرة خصيصةً للعربية مبنيةً على الموازنة بين اللغات .

ومما جاء فيه:{تمتاز العربية بين الساميات بقدرتها الفائقة على توليد الأوزان والأدوات وتخصيصها بمعان محددة} قلت : والتوليد دليلٌ على طواعية اللسان ومرونته وثراء مادته اللغوية ورحابتها. ثم سرد المؤلف مجموعةً من المسائل وزعها بين الأسماء والأفعال.

١ ـ التنكير :{... والشاهد في التنوين أنَّ العربية استطاعت من المخزون السامي المشترك الذي تستخدم فيه النون أو الميم ، أي التنوين والتمييم أن تنشئ أداةً تعمم استخدامها على المفرد المذكر والمؤنث وعلى جمعي التأنيث والتكسير وإذا نحن قارنا بين هذا الواقع وما في أخوات العربية من الساميات افتقدنا فيها ما في العربية من تخصيص التعريف بأداة والتنكير بأخرى ، ومن التفرقة الحاسمة بين المعرفة والنكرة } ثم ذكر اللغات التي جرت موازنتها بالعربية : الأكديّة، السريانية ، العبرية ، الحبشية .ثم ختم هذه الفقرة بقوله : { ... أنَّ العربية تمتاز عن أخواتها بأداةٍ للتنكير صارت علماً عليه كما يقول النحاة}

٢ ـ جمع التكسير : {والذي يعنينا من هذا الموضوع الشائك والخلاف أنَّ العربية وسعت استخدام بعض الأوزان السامية وطورت دلالتها من اسم الجنس نفسه إلى دلالة الجمع ... ويظهر مدى توسع العربية في هذه الظاهرة ، وتحديدها للعلاقة بين أوزان جموع التكسير وأوزان المفرد(كأن يكون" فِعَال " جمعًا لـ " فَعْل " و" فَعْلة " و" فَعَّل : و"فَعَلة " إلخ، نحو "ثوب وثياب " و" قَصْعة وقِصاع " و" جَبَل وجِبَال "و " ثَمَرة وثِمار

٣ ـ جمع القلة{ نخص هذا الجمع ... لأنه يظهر قدرة العربية على التخصيص بما يفوق أخواتها .ثم وصف ما يوجد في أخوات العربية من جموع القلة بأنه{ لا يعدو أن يكون أمثلة متفرقة لا يمكن أن توصف بأنها ظاهرة مطردة خلافا لما في العربية}

٤ ـ المثنى{ تتفاوت أخوات العربية في استخدام المثنى... أما العربية فقد وسعت استخدام المثنى توسيعًا لانقع عليه في أي من أخواتها ، الأمر الذي يظهر ميلها نحو التعميم والاستفادة من الظاهرة ما أمكن }ومما توسعت به العربية في المثنى : تثنية الضمائر ، الصفات ، الأسماء المبهمة .

٥ ـ أفعل التفضيل :{ باستثناء العربية ليس في اللغات السامية صيغةٌ صرفيةٌ خاصة بالتعبير عن التفضيل بنوعيه أي درجة التفضيل والدرجة الفضلى ولذلك نجد أنَّ تلك اللغات تضطر إلى

استخدام وسائل غير مباشرة للتعبير عن التفضيل فالعبرية مثلا ، قد تعبر عنه باستخدام الصفة نفسها متبوعة بمن نحو: (كبير من أي أكبر من ... أمّا العربية فقد خصت التفضيل بنوعيه بصيغة أفعل ... فأضحى التفضيل مرتبطًا بصيغة محددة وقياسية تعفي اللغة من أسلوب "المداورة " الذي تضطر إليه اللغات التي تفتقر إلى مثل هذه الصيغة} أقول يقصد بالدرجتين أن يوصف شيءٌ أنه فاضل ويوصف آخر بأنه أفضل ، ففي غير العربية يقول المتحدث : هذا طريق طويل ويقول لآخر : هذا طويل منه ؛ بخلاف العربية فنقول : هذا طريق طويل وهذا أطول منه ويضاف درجة ثالثة : هذا الطريق الأطول .

٦ ـ التعجب : {في هذا تنفرد العربية بين الساميات بأن خصت هذا المعنى بصيعتين قياسيتين هما " ما أفعله " ... و"أفعل به "

وقال في هامش٣ ص١٤٦: {احتفظت العربية أيضا بعبارات سماعية تدل على التعجب نحو : " لله دره " و "لله أنت " و " ياله فارسا " ،" سبحان الله " و" واهاله " إلخ}

٧ ـ التصغير { ... العربية هي اللغة السامية الوحيدة التي عممت التصغير وجعلته قياسيا بتخصيص ثلاث صيغ صرفية له ، هي: "فُعَيْل "و" فُعَيْعل "و " فُعَيْعِيل "... وسعت العربية استعمال التصغير ليشمل (الأسماء المبهمة) فصغرت اسم الإشارة نحو: " هُذيا "و" ذياك " و" أُليا " ،واسم الموصول .نحو: " اللذَّيا " و " اللَّتيا " كذلك صغرت العربية الظروف ، نحو : "دّوين " " فُويق " "قبيل" بُعيد" وصيغة التعجب. نحو: " ماأميلح "ما أحيسن "والعدد نحو : ثنيا عشر. إنَّ كل هذا يدل على اكتمال عدة العربية ودأبها على تعميم الظاهرة والإفادة منها إلى الغاية القصوى}

٨ ـ الاسم الموصول :{تحتفظ العربية ، خلافا لأخواتها الساميات بنوعين صرفيين اثنين للأسماء الموصولة أولهما الذي ومشتقاته ... وثانيهما " ذو " ومشتقاته ... وقد لا يكون بإزائهما في بعض أخوات العربية إلا أداة واحدة في العبرية والآرامية والسربانية .. وأخضعت الأسماء الموصولة للإعراب ... وليس لإعراب اسم الموصول المثنى نظير في الساميات فيما نعلم }

٨ ـ المصدر :تصنف المصادر في العربية إلى مصدر أصلي ومصدر ميمي ومصدر صناعي.وقد اختصت العربية بالنوعين الثاني والثالث من حيث استخدامهما القياسي للدلالة على المصدر ومن حيث صوغهما الصرفي أيضا ... أما المصدر الأصلي فتختلف العربية فيه عن أخواتها من وجوه أخرى ، وهو كثرة أوزانه قياسية وغير قياسية ، ففي حين يقارب عدد المصادر للفعل المجرد الأربعين ، تقتصر الآرامية على وزن واحد ومثلها السريانية ، وتقتصر الحبشية على وزنين ، وتستخدم العبرية وزنين أساسين وبضعة أوزان قليلة الورود جدا إنَّ هذا الفرق الشاسع بين العربية وأخواتها يظهر مدى نمو العربية وتوسعها قياسا عليهن ... وعلاوة على ماسبق تختص العربية من دون سائر الساميات بمصدر المرة (فَعْلَة) ومصدر النوع (فِعْلَة) فهما مما ابتدعته}

٩ ـ دلالة الفعل الزمانية : { ويكفي أن يلتفت الباحث إلى تراكيب من مثل " كان فَعَل "و " كان قد فَعَل " و كان يكون فَعَل " و " لوقد فعل لقد فعلت "و" كان سوف يكون و " ولما يفعل (بإزاء " لم يفعل "و" حتى إذا فعل ... فعلتُ "وإلى أدوات وأساليب ترتبط بالتعبير عن الزمان؛ فمن الأدوات " إذ " "وإذا " الفجائيتان " وما " المصدرية الظرفية؛ ومن الأساليب تصغير الظرف ـ نحو: "قُبيل " و"بُعيد

"واستخدام المشتقات للدلالة على الزمان ، وذلك في الاستعمال القياسي لأسماء الزمان ... يكفيه ذلك حتى يدرك سعة العربية في الدلالة على الزمان قياسا على أخواتها... وانفردت العربية أيضا بين الساميات في ابتداع أفعال تدل على مقاربة حدوث الفعل ، وهي " كاد " "و "أوشك "، وأفعال تدل على بدء حدوثه ، وهي أفعال الإنشاء، نحو : " طفق " و "أنشأ " و"علِق " و" وجعل "و " بدأ " ، " أخذ "؛ وأفعال المقاربة والإنشاء هذه لا تمثل قدرة العربية على تعيين زمان حدوث الفعل وحسب ،بل تظهر قدرتها على الإيجاز إذ قد يضطر المتكلم لولا تلك الأفعال إلى عدة كلمات ليعبر عن المعنى الذي يكتنزه كل منها لأنه معنى مركب يدل على الفعل مع صفة أخرى له هي مقاربة حدوثه أوبداية حدوثه }

١٠ـ البناء للمجهول : { ... ما تميزت به العربية عن أخواتها في هذا الباب هو القدرة على استخدام صيغة المجهول في جميع مزيدات الفعل ،في الماضي والمضارع على السواء ... أما في اللغات السامية الأخرى فالأمر مختلف .فالعبرية أكثر تلك اللغات استخدامًا لصيغ المجهول بعد العربية ، إلا أنها هي نفسها لا تبنيه إلامن المجرد ومن وزني(فعَّل) و(أفعلَ) مع بعض الأمثلة الأخرى المتفرقة والنادرة ؛ أما الآرامية فأقل استعمالا من العبرية لصيغ المجهول ،وأما الحبشية والأكديَّة فلايكاد يوجد فيهما أي أثر لصيغٍ خاصةٍ بالبناء للمجهول}

١١ـ حركة فاء الأجوف في الماضي:قلت: الأجوف هوما كان ثلاثيا وسطه حرف علة، قال، باع.

{ ليس في أخوات العربية قاعدة صوتية تقرن بين حركة فاء الفعل الأجوف في صيغة الماضي والصائت (الحركة) المميز في المضارع ... أما العربية فتظهر طبيعة الصائت المميز للفعل الأجوف في حركة فائه في الماضي ، نحو: عُدت ،جُلت، رُحت . أقول إنَّ المقصود بالاقتران هنا هو: المناسبة بين ضم الفاء والواو المحذوف، يعود، يجول ، يروح.

مِلت ،وسِرت ،وضِعت.. أقول: كُسرت الفاء لمناسبة الحرف المحذوف وهو الياء،يميل ، يسير ،يضيع ـ وذلك على نحو قياسي لم يذكر اللغويون مايشذ عنه إلا" مِتُ وكِدتُ وحتى هذا قد قيلا بالضم أيضا، ونتيجة لهذا يتسم الجدول التصريفي للأفعال الجوفاء في العربية بالانتظام الشديد من حيث حركة فائه في الماضي خلافا لما في اللغات السامية الأخرى }

١٢ـ صيغ المضارع النحوية : { يبلغ مجموع صيغ المضارع النحوية في الساميات ستا، وهي صيغ : الرفع ، والنصب والجزم والتوكيد وأمر الذات والأمر؛ وهذه الصيغ كما يرى (جراي) احتفظت بها العربية جميعا[أفعلُ، أفْعَلَ ، أفعَلْ ، أفعَلَنَّ ، أفعَلا ، أفعَلْ.

واحتفظت العبرية والأكدية بخمس منها،وآرامية العهد القديم بأربع ، والحبشية بثلاث ،والسريانية والعربية العامية باثنتين ... ولا شك أنَّ العربية قد طورت ـ بما يفوق أخواتها ـ نظام استخدام هذه الصيغ والأدوات التي تصاحبها }

١٣ ـ الإعراب: والناظر في إعراب الأسماء والأفعال في العربية نظرة مقارنة بما في اللغات السامية الأخرى يدرك المدى الذي بلغه نظام الإعراب في العربية من اكتمال، قياسا على ما في تلك اللغات وإننا نذهب إلى أنَّ مرد ذلك إلى أمرين :أولهما أنَّ العربية احتفظت أكثر من أخواتها بنظام الإعراب القائم في السامية الأم وثانيهما أنها وسعت ذاك النظام وعممت تطبيقه على حالات لم تكن قائمة

في الأصل المشترك... فالأغلب الراجح أنَّ القدر المشترك من نظام الإعراب الأساسي القائم في السامية الأم قد تم توسيعه في العربية بسبب من ميلها إلى تعميم الظواهر باستغلال مادتها الأساسية ودفْعها إلى الشأو الأبعد }

١٤ ـ طواعية التركيب : { ... وهي القدرة على التقديم والتأخير باعتبار أنَّ وظيفة الكلمة ليست مستفادة ـ بالضرورة ـ من موقعها النحوي لأنَّ علامتها الإعرابية تبين تلك الوظيفة وإن تغير موقع الكلمة في التركيب. وهذه القدرة يفتقدها سائر الساميات بمقدار افتقاده لعناصر النظام الإعرابي الشامل ... المراد بطواعية التركيب ... الجانب البلاغي ... ونؤكد ثانية على أنَّ النظام الإعرابي في العربية هو العامل الأساسي في قدرتها الكبيرة على إحداث فروق وظِلال في المعاني انطلاقا من نظم الكلام في التركيب ؛ ولسنا نجد بين أخوات العربية لغة تدانيها في هذا،لافتقار تلك الأخوات أصلا إلى نظام إعرابي يداني نظام العربية اكتمالا وتوسعا}

١٥ ـ تأنيث الأدوات :مثل أي ، أية ، ثَمَّ ثمت ، رب ربة.{ ... وإننا نميل إلى القول إنَّ إدخال التاء على هذه الأدوات تطور ذاتي في العربية بدليل عدم وجود نظائر له في أخواتها }

١٦ـ العطف : { ... والذي تمتاز به العربية عن أخواتها في العطف أنها خصت كلاًمن الواو والفاء وثم بدلالة محددة }

{ص١٦٩: لقد أدرك لغويو القرن التاسع عشر ومطلع العشرين أنَّ العربية، رغم حداثة المادة التي وصلتنا منها قياسا على سائر أخواتها، أكثر اللغات السامية احتفاظًا بالخصائص التي نسبوها إلى السامية الأم } ص ١٧٠

وحين استعرضت نتائج دراسة الدكتور بعلبكي فلا أجدني مبالغًا لواقتصرت على تلك النتائج في بيان فضل العربية ؛ فمنهجه قائم على الموازنة ، وهو عالم معاصر استوعب زادًا من علم السابقين ، وصاحب فكر متوازن إذ أنه لم يدرس اللغات بنفَس عرقي حيث يقول : { ... وينبغي التنبه هنا إلى أنه لا ينبغي النظر إلى مسألة المحافظة والتطور على أنها مسألة قومية ففي هذا تجن على البحث العلمي }

مصطلح التمييم : يقصد به أنَّ بعض اللغات السامية تجعل الميم علامة للمنون فكما نقول تنوين يقولون تمييم، فهم يلحقون الميم في آخر الاسم المنون ، ويكون التمييم أيضا بإضافة ميم علامةً على الجمع ، وهي تضاف إلى ضمير المتكلم : جئتُ جئتم، أكلت أكلتم ، التزم المؤلف بمنهج الموازنة ما يجعل الناظر فيه يثق أكثر بصواب رأيه .

وما يجدر الإشارة إليه أنَّ هذا المبحث يرد فيه تعبيرات مثل: احتفظت العربية،تختص، انفردت، تميزت، طورت، وسَّعت.

١٣

حسن ظاظا رحمه الله (١٩١٩ -١٩٩٩).

في كتابه

اللسان والإنسان

مدخل إلى معرفة اللغة

ص١١٠- ١١١

" ... نحن نعلم أنَّ اللغة العربية الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم، بناءً على أحدث أبحاث فقه اللغة التاريخي والمقارن أقرب الصور إلى ما كانت عليه لغة الساميين الأم، تلك اللغة الأصلية المندثرة،التي تفرعت عنها كل هذه المجموعة التي نسميها اللغات السامية من أكادية (بابلية ـ آشورية) وكنعانية(فينيقية ـ مؤابية ـ عبرية) وأرامية (سريانية ـ نبطية) وعربية (عدنانية ـ قحطانية يمنية) وحبشية (جعزية ـ أمهرية) ... إلخ . فإذا تبين لنا أنَّ الأكادية التي ترجع إلى الألف الثالث قبل ميلاد المسيح، إذا قورنت بالعربية الفصحى ظهر أنها، على شدة شبهها بلغة العرب، وكأنها متطورة متساهلة في كثير من المقومات والمميزات القديمة للغة السامية، فإنه يصبح من المرجح أنَّ اللغة العربية الفصحى أقدم بكثير جدًا مما تقف عنده نصوصها ومرويا تها الجاهلية، وأنها بهذا القدم، وبعدد من الأنبياء الذين ظهروا بين أهلها في قديم الزمان كشعيب وهود وصالح، وبالكعبة التي شيدها إبراهيم الخليل في مكة، كانت تعتبر- حتى عند الجاهليين ـ لغة مقدسة حقا

١٤

فقه اللغة المقارن للدكتور / إبراهيم السامرائي

١٩٢٣- ٢٠٠١م

❖ من كتاب/ فقه اللغة المقارن للدكتور / إبراهيم السامرائي:ص١١٨" لقد احتفظ اللغة العربية الفصيحة بظاهرة الإعراب وهي من صفات العربية الموغلة في القدم، في حين أنَّ سائر اللغات السامية ما عدا الأكادية قد فقدت هذه الظاهرة من أقدم العصور"

١٥

كتاب" ظاهرة التأنيث بين اللغات السامية

للدكتور إسماعيل أحمد عمايرة ص٩٦ استنتج من تصريف الفعل قتل في نموذج من اللغات السامية، العربية،الحبشية ، الآرامية، العبرية "... ٢ـ أنَّ العربية أكثر هذه اللغات عناية بالفرق بين صيغ المذكر والمؤنث وأوفاها استيعابا ؛ ... وتزيد العربية على بقية اللغات المبينة في الجدول بصيغة المثنى مذكرًا ومؤنثا: قتلا، وقتلتا"

١٥

❖التحيز اللغوي وقضايا أخرى

بدايةً أقول إني لأجدُ حيرة فيما أقول عن شطري الكتاب؛ فأنت تقرأ صفحاته الأولى فتوشك أن تقول بل تقول إنّ المؤلف يهاجم العربية، ويحجِّر عليها ويقل احتفاؤه بما قيل عن خصائصها،فهل المؤلف عقد العزم على نفي أفضلية العربية ؟، مع أنَّ القول بأفضليتها صادرٌ من علماء أثبات لهم علمٌ بألْسِنةٍ أخرى، ولكنك حين تمضي في القراءة تجد ما يقلب الصورة. ويُظهرمن المؤلف غيرةً وفرحًا في تفوق العربية.

ولا أريد أن أذهب في التأويلات فلعل الأمر أخف ،ومع هذا فالدكتور خدم العربية خدمة جليلة في ترجمته لكتاب : محاسن العربية في المرآة الغربية أو دلالة الشكل في العربية في ضوء اللغات الأوربية، لديفيد جستس

قطعت شوطا في القراءة ثم بدأت التأمل حين وصلت إلى قوله ص٣٢ عن ابن جني رحمه الله(...ليعبر عن حيرته بين الاعتقاد بأفضلية العربية وأوليتها...) وللتذكير برأي ابن جني ـ رحمه الله ـ فقد مر الكلام مفصلا عنه حين الحديث عن كتاب الخصائص وفيه جزم بلا حيرة عن أفضلية اللسان العربي، وهوجزمٌ مبنيٌ على موازنة بين ألسنةٍ أخرى مع اللسان العربي.

عرض أقوال جمعٍ من العلماء في القديم في فنون مختلفة يفضلون العربية على غيرها، ثم قال: (ومما يشكك في صحتها ص٣٨ ... ـ ٣ ـ أنَّ تفضيل العربية لم يكن ناتجاعن مقارنتها بلغات أخرى) هذا قول يرده ما كتبته سابقًا عن ابن جني، والفارسي،وأبي حاتم الرازي.فلترجع إليه.

في ص٤٠(... فيجب ألا يُفهم من إنزال القرآن الكريم بالعربية إذن أنه تفضيل لهذه اللغة) أعجب من رأيه هذا ، لكن ماأراه أنَّ واقع الأمر يأباه، لذلك سأعيد قولا قلته في المقدمة: أقول إنَّ اليقين الموقن الذي لايخالطه شك أنَّ القرآن الكريم هو أعظم كتابٍ نزل من عند الله،وهذا اليقين تولد منه يقينٌ من أنَّ اللسان الذي اختاره الله لهذا الكتاب العظيم هو أكمل لسانٍ عرفه البشر وهذا الأمر قطعيٌ قضى الدليل وصحة النظر بضرورته؛ فعندما يباهي الله بكون هذا الكتاب مهيمنا على غيره{وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ } (٤٨) سورة المائدة فيختار بحكمته هذا اللسان ، فلا شك أنَّ بهذا سرًا أحظاه الله هذا اللسان"، والهدف الذي من أجله جاء هذا البحث هوا لكشف عن شئ من هذا السر.

وفي ص٤١ نقل كلا مًا لسيد قطب رحمه الله :" ... وقد كانت اللغة ، كأصحابها، أصلحَ ما تكون لهذا الحدث العظيم، ثم اعترض قائلاً:(... ذلك أننا نجد في القرآن الكريم آيات تدل على وضعهم ـ العرب ـ السيئ الذي كانوا عليه كقوله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } (١٠٣) سورة آل عمران. أقول: إن وصف العرب بهذا الوضع السيئ هو وصف لحالهم من الفرقة والعداء ولا دليل فيه يقدح بلسانهم.

ولوكان سوء وضعهم مؤثرًا على لسانهم لاختار الله لهذاالكتاب العظيم لسانًا آخر؛ ولا غرابة أن نجد كثيرًا ممن نقص حظهم من فاضل الأخلاق ولهم ألسنةٌ خُلَّب ، وأُوتوا من البلاغة ما أُوتوا .

في ص٦٤قال: التحيز اللغوي في العصر الحديث، واستعرض ثلاثة كتب، رأى أنّ فيها تحيزًا للعربية، ولكنَّ الدكتور فاته الرجوع إلى مرجع حديث ، مع أنَّ مؤلفه ممن ورد ذكرهم في كتابه، والكتاب المقصود هو كتاب : فقه العربية المقارن دراسات في أصوات العربية وصرفها ونحوها على ضوء اللغات السامية للدكتور / رمزي منير بعلبكي، تحدثت عنه سابقا في هذا الكتاب ولمعرفة قيمته العلمية. يحسن الرجوع إلى ذاك المبحث.

أما احتفاؤه بالعربية فأقول: في ص٩٧ عقد مبحثا بعنوان " مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة"وفي ص ١٠٣ هناك عنوان جانبي" الاهتمام باللغة العربية نموذجًا للتحليل، ومما ورد تحت هذا العنوان: (يجد المطلع على الدراسات اللسانية المعاصرة أنَّ اللغة العربية كانت موضع اهتمام أكثر علماء اللسانيات تميزًا في هذا العصر، وتهتم دراسات هؤلاء بها من حيث إنها تتمثل لغة طبيعية يمكن أن تسهم في تقدم البحث اللساني... كما كتب جوزف جر ينبرج مقالا عن نمط " الصرفيَّات الأصول "في اللغات السامية . اتخذ فيه العربية مثلا لهذه اللغات بسبب وفرة المعلومات المعجمية ومحافظتها على النسبية في نظامها الصوتي ... وكما يقول عالم اللسانيات الأمريكي المعاصر فْرِدْ هَوْس هُولدر في تقديمه لمجموعة المقالات التي جمعها سلمان العاني ... ذلك أنه يبدو من هذه المجموعة أنَّ اللغة العربية تحوي مسائل لفتت انتباه أكثر العقول المهتمة باللسانيات تميزًا وتوضح أكثر المفاهيم اللسانية الأساسية) في ص١٠٥ـ ١٠٦نقل عن مايكل بريم(... إنه يبدوأنَّ اللسانيات في وضعها الراهن مفلسة ، فليس هناك إلى الآن أي وصف صواتي معاصر لأية لغة ساميَّة يتجاوز تحليل النحويين العرب القدماء) وفي ص١٠٩تحدث عن إحدى النظريات اللسانية لمكارثي فقال: (... فأصبح اسمها" الصواتة الوزنية ذات المستويات المستقلة... وكانت اللغة العربية المثال البارز الذي يُستعمل في التدليل عليها)

مشيرة عيد هي من مؤسسي الجمعية اللسانية في أمريكا وذكر عن واحد من مقالاتهاص١١١: (... وذكرتْ أنَّ الاهتمام باللغة العربية كان ذا شقين، أحدهما: البحث في اللغة العربية ذاتها، وثانيهما البحث فيها لغرض اختبار المقولات النظرية اللسانية وتطويرها)

ص١١٤علق بعد أن ذكر جملةً من الأبحاث اللسانية (... وهكذا نرى أنَّ أهداف هذه الأبحاث كلها هو دراسة بعض الظواهر في العربية للإسهام في تطوير اللسانيات النظرية؛ ومن الأدلة على أثر مثل هذه الدراسات أنَّ البحث الصوتي الآن يأخذ النظرية التي أسست على اللغات السامية، خاصة العربية ذات التركيب الصرفي المتميز عن غيره، نموذجًا يعمم على لغات تختلف عن اللغات السامية في كون الصرفيات فيها متتابعة بدل أن تكون مستقلة بعضها عن بعض)

وقال في الصفحة نفسها عن الجمعية اللسانية في أمريكا أنها نشرت في المجموعة الثالثة من أبحاثها(... ويكتب كومبري المقال الأول بعنوان " أهمية اللغة العربية لنظرية اللسانية العامة، ويبين فيه بأدلة جديدة أهمية العربية للتنظير اللساني... لذلك أود أن أبين حتى لأولئك اللسانيين الذين لا يهمهم هذا المنظور الحضاري الواسع أنَّ اللغة العربية لديها الكثير مما تقدمه لهم)ص١١٥

وقال في مقدمة ترجمته لكتاب: كتاب محاسن العربية في المرآة الغربية أو دلالة الشكل في العربية في ضوء اللغات الأوربية تأليف/ ديفد جستس: " ... لكن مالفت نظري أكثر من غيره في الكتاب أنه تضمن ردًا لكثيرٍ من المقولات المتحيزة ضد اللغة العربية، فقد عرض المؤلف لكثيرٍ من المقولات التي سادت في السياق الثقافي (الغربي) عن اللغة العربية وأخذ يفندها الواحدة بعد الأخرى"

وأخيرًا أقول :لاأعرف سببا يجعل الدكتور حمزة ـ وفقه الله ـ يرد على تفضيل العربية من قبل بعض العلماء ، ثم يحتفي بصدارتها مستشهدًا بآخرين!

١٦

موسوعة الشعر العربي

الكتاب موسوعة الشعر العربي.اختارها وشرحها وقدم لها: مطاوع صفدي و إيليا حاوي، أشرف عليها: الدكتور خليل حاوي، التحقيق والتصحيح نصا ولغة ورواية : أحمد قدامة، ورد في قسم العصر الجاهلي ، وهو من مراجعة الدكتور/ جبرائيل جبُّور ص٢١ " وأول ما ينبغي أن ينتبه إليه الناقد الحديث ، هذه الصلة العميقة الفريدة ، بين بنية اللغة العربية، وبين شعرها الجاهلي؛ فليس هذا الشعر شيئا مختلفا عن بنية العربية وليس فرعًا أو تطبيقا عاليا لها ، بل إنه صميم الينبوع التجريبي والواقعي الذي صدرت عنه اللغة العربية نفسها ... أنَّ الصوت المعبِّر عن توافق الوعي عند الإنسان العربي، مع الظرف الحيوي الذي يؤلف لحظة القول لحظة الكلام ، هو نفسه الذي ألف جذر الكلمة في اللغة ... ومن هنا جاء اعتبار اللغة العربية لغة عضوية، وليست تركيبية ؛ بمعنى أنَّ جذور ألفاظها ، إنما هي رموز موسيقية عن الحالة الداخلية للناطق ، في وضع أو حالة أوموقف، وأنَّ تغيُّر هذه الجذور بالحركات ، هوتخصيصٌ للأنغام الأساسية بلونيات الأحوال المرتبطة بالفعل، وآنات الزمان ، وتغير صيغة المخاطبة، في حين أنَّ أكثر اللغات الأوربية خاصة، قد عانت نهائيا من الانفصام الصوتي والتجريبي بين الألفاظ وموسيقاها،وبين المعاناة ؛ فأصبحت أقرب إلى المصطلحات الموضوعة، كرموز اتُفِقَ على دلالتها بفعل الوعي والحاجة"

قلت: وهذه موازنة بين العربية وكثيرٍ من اللغات الأوربية تفيد أنَّ العربية توحي ألفاظها بدلالة معانيها إيحاءً تلقائيا بينما هذه اللغات الأوربية يثقل على حروفها هذه المعنى فكأنَّ أصحاب هذه الألسنة اتفقوا واصطلحوا على أنَّ اللفظ الفلاني للمعنى الفلاني ، فليس هناك دلالة عضوية نابعة من أصل أنَّ الحرف موضوعٌ لهذه الدلالة؛ فدلالة اللفظ على المعنى دلالة وضعية وليست عضوية.

قوله: الظرف الحيوي، أي الحالة الشعورية للعربي التي أفرزت هذا القول ، وأنَّ الحالة الشعورية هي التي حددت نوع الحرف الناقل لهذا الإحساس؛ وهذا الكلام عميق دقيق يفيد ويؤكد متانة النسب بين اللفظ وما ينقله من معنى؛ فلا نقول حين التحليل : قال كذا لأنه يحس بكذا، وإنما الصواب أن نقول أحس فقال. أي أن اللفظ المعبر موجود في الذهن قبل الإحساس بما يراد .

١٧

فقه اللغات السامية ص٢٨

تأليف: كارل بروكلمان

ترجمة رمضان عبد التواب

" ... وتقابل اللغة العربية مع اللغة الحبشية تحت اسم السامية الجنوبية الغربية ــ اللهجات الكنعانية والآرامية تحت السامية الشمالية الغربية، وتفترق الأولى عن الثانية في احتفاظها الكامل بالأصوات الأصلية الغنية على الأخص أصوات الحلق وأصوات الصفير المختلفة الدرجة،كما أنها تفترق عنها كذلك في احتفاظها التام بالحركات القديمة.

وطريقة بناء الصيغ في السامية الأولى توجد هنا في أرقى مراحل تطورها، تلك التي وسعت كل إمكانات الاستعداد الأصلي تقريبا، وبذلك زادت قدرة اللغة على التعبير بالأفعال زيادة كبيرة

١٨

أنطوان شبيتالر

يقول المستشرق الألماني "أنطوان شبيتالر" في تعليقه على كتاب " العربية .دراسات في اللغة واللهجات والأساليب" للمستشرق الألماني يوهان فك. ترجمة رمضان عبد التواب ص١٥: لقد احتفظت العربية الفصحى ، في ظاهرة التصرف الإعرابي، بسمةٍ من أقدم السمات اللغوية التي فقدتها جميع اللغات السامية ـ باستثناء البابلية القديمة ـ قبل عصر نموها وازدهارها الأدبي .

١٩

رفائيل بتي

في كتابه العقل العربي، يقول ص٥٣:" لقد تسنى لي في أكثر من مناسبة أن أشهد قوة الفصاحة العربية ... أشعر بذلك حين أحضر المسرحيات العربية أو أستمع إلى خطبة عربية أو أندمج في قصة يرويها أحد الرواة في مقهى ما في ليلة رمضانية أو حتى عند خوض نقاش حيوي بين الأصدقاء ، وباعتباري مطلعا على العديد من اللغات يمكنني أن أشهد بالاعتماد على خبرتي الشخصية على أني لا أعلم لغة تقترب ــ ولو قليلا ــ من اللغة العربية في قوتها البلاغية وقدرتها على اختراق وتجاوز المعارف الأدبية لتصل إلى العواطف وتطبعها بطابعها الخاص وبهذا الاعتدال لا يمكن مقارنة للغة العربية بغير الموسيقى ... وعند المقارنة مع بلاغة أبسط أمي عربي تبدو اللغة الإنجليزية التي ينطق بها شخص أمريكي عادي نوعا من الهمهمات المتناثرة"

حين يقول : {لا يمكن مقارنة اللغة العربية بغير الموسيقى} فهو يصور تصويرًادقيقا ما تسببه وتحدثه هذه اللغة العجيبة في مشاعره التي لا يملك المتذوق ردها أوالتحكم فيها ؛ فهو إعجاب وتأثير عفوي وإن شئت فقل سلطوي لم يكن الإنسان يعمد إليه ولا ينتظره ؛ وكونه يشبِّه ما تحدثه العربية من الأثر الشعوري المتجاوب بلا قيود بأثر الموسيقى. فهذا لا شك أنه توصيف لمكنونه وتعبير دقيق عما يحسه ، وذلك أنه قرَّب الصورة بأحسن ما يستجيش مشاعره وهو أثر الموسيقى.

وكما نقبل بتميز العربية لأن لها تأثيرَ الموسيقى، فإنَّ مستويا التأثير تبرز أكثر عند المسلمين بالاستماع إلى القرآن الكريم وتعبر عن الإحساس بجمال اللغة فالقرآن كما قال تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} (٢٣) سورة الزمر، فحدوث القشعريرة شأنُ عجيب لا يستطيع الإنسان اجتلابه أوتكلفه ولا توقعه ، وإنما هوحدثٌ تلقائي ، وهناك من الإحساس بجمال النظم مالا يُستطاع التعبير عنه؛ فهو إحساس وقشعريرة وكفى ؛لأنك تجد قشعريرة وتموجًا داخل النفس وأريحية لا تدرك الألفاظ قدرة نقلها إلى مشاعر الآخرين أو التعبير عنها . فيجري الشعور ممن أحس به مجرى الدم فيسري في سائر بدنه . وهذا يعزز الاكتفاء بكونه دليلا على الأقل عند المسلمين.

٢٠

كتاب محاسن العربية في المرآة الغربية

أو

دلالة الشكل في العربية في ضوء اللغات الأوربية

تأليف/ ديفد جستس،

ترجمة الدكتور/ حمزة بن قبلان المزيني

ص٢٢ـ ٢٣ (... كما أنَّ بنية العربية المعاصرة شبيهة جدا ببنية لغات سامية يرجع تاريخها إلى ثلاثة آلاف سنة؛ وعلى الرغم من الاختلاف الكبير بينها تبقى اللهجات العربية المعاصرة محتفظة بالبناء النحوي نفسه... وعلى أية حال فما يهمنا هنا هو أنَّ اللغة العربية النموذجية لم تتغير بشكل كبير يوجب عند الكلام عنها في هذا الكتاب أن نتحرى عند كل منعطفٍ السَّنة التي كتبت بها جملة معينة)

(ص٢٦... فا للغة العربية، من حيث البنية لغةٌ مطردة ومصقولة بشكل غير معهود)

ويقول في ص ٢٩: (... وهي لغة ذات تراث أدبي غني لا مثيل له، ولغة دين عالمي... وتشبه الإنجليزيةُ العربيةً في كون مفرداتها الهائلة جاءت نتيجة لمحافظة الأدب عليها في حين خضعت الفرنسية لثورة معجمية مطردة في القرن السابع عشر، ومع هذا لا يمكن للكاتب الإنجليزي الرجوع إلى أبعدمن أواخر القرن السادس عشر، في حين يمكن في العربية أن يعود الكاتب العربي إلى القرن السابع الميلادي) قلت : وإذا عرفنا أننا الآن في القرن الحادي والعشرين فهناك فرقٌ بين لغة تراثها يمتد أكثرمن ثلاثة عشر قرنا وأخرى لا يزيد على ستة قرون، ولا شك أنَّ هذا البعد الزمني سيتضاعف

فرقه بين اللغتين؛ لأننا بعد مدة سنرى أنَّ المرجع الإنجليزي صار مثلا القرن العشرين بينما المرجع العربي بقي في القرن السابع.

أما ما يتعلق باللغة الفرنسية فأرى أنَّ البونَ أوسعُ بينها وبين العربية؛ فإذا كانت الفرنسية بهذه الدرجة بالنسبة للإنجليزية فلا مجال بمقارنتها بالعربية، ويندرج هذا القول على كل اللغات اللاتينية ـ الإيطالية، الفرنسية،والكتلانية، الرومانية، الإسبانية، البرتغالية،ـ التي هي في الأصل لهجات ثم تحولت إلى لغات لأن اللغة اللاتينية ـ مع تقادمها التاريخي ذابت في هذه اللهجات ـ فليس لها إرثٌ يماثل أو يدنو من العربية الذي يجعل لهجاتها تعود إلى أصل محكم؛ فلا مجال لأن يقوم دارسو اللغات بتخصيص لهجة عربية بأنه لغة منفصلة عن العربية؛ لأنَّ متكلمي هذه اللهجة لا يرون أنها لغة منفصلة. فهم إن أردوا أن يكتبوا أو يتكلموا في المحافل فإنهم يكتبون ويتكلمون بلسان واحد.

في ص٣٠ يتحدث عن أثر حذف الحركات في العربية(ولا تكتب الحركات في النصوص غالبا... بل إنَّ هذا الحذف يدعو إلى الإعجاب، إذا ما أخذنا بنية اللغة العربية في الحسبان فليس هناك إلا ثلاث حركات للاختيار من بينها، ولا يوجد إلا عدد قليل من الكلمات التي تميز بينها إلا حركة قصيرة، مقارنة بالفرنسية أو الإنجليزية [التي توجد فيها كلمات كثيرة لا يميز بينها إلا حركات قصيرة]

في ص ١٥٤ـ ١٥٥ : " ولعدم وجود مقولة للمثنى في اللغات الأوربية الحديثة... فهل مقولة المثنى في العربية إذن شئٌ زائد لا قيمة له... المثنى في العربية ليس مجرد حقيقة شكلية بل هو بدلاً عن ذلك لحنٌ إيقاعي في المعزوفة العذبة لخصيصة الثنائية التي تميز العربية، ولا يزيد حكمي هذا في نهاية الأمر عن كونه حكمًا حدسيا أو اختياريا"

في ص ٢٧٧ـ ٢٧٨ : " ويمثل هاملتون جب أكثر المواقف النمطية حين يتحدث عن تطور اللغة الغني جدًا... أنَّ أي تنوع من المظاهر الطبيعية، مهما صغُر، وأي نشاط منفرد مهما كان تعقيده،يُعبر عنه بمصطلح ملائم خاص به...اللغة العربية فريدة في كونها نقلت معجمها الغني جدًا ليؤدي دورًا مهمًا في أدب أمة متطورة جدا...وظل هذا الغنى المعجمي ، من نواحٍ عدة خصيصة واضحة في اللغة العربية النموذجية المعاصرة فكثرة المترادفات ظاهرة تلفت النظر في كل المواضع وكل الفترات كما يقول مونتيه ١٩٦٠،ص٢٠٥" ، في ص ٢٨٢ يوازن بين احتفاظ العربية واحتفاظ الفرنسية المعجمي فيقول: " أما في العربية فالكلمة التي لم تستعمل منذ أن كان أجداد المجمعيين الفرنسيين يتلفعون بجلود الدببة لا تزلا حية بين دفتي المعجم

الخاتمة

أرى أنَّ من المناسب في هذه الخاتمة أن أذكِّر بالمنهج الذي اتخذته للقناعة والاستشهاد بسرٍ من أسرار العربية؛ فقد ألزمت نفسي بأن يكون السر مستوحى من موازنة بين العربية ولسانٍ آخر يتبين منها اختصاصُ العربية بهذا السر، كذلك وضعت أمامي مقولة رمزي بعلبكي حيث قال: " وينبغي التنبه هنا إلى أنه لا ينبغي النظر إلى مسألة المحافظة والتطور على أنها مسألة قومية ففي هذا تجن على البحث العلمي"

قلت:إنَّ القراءة والبحث بنَفَسٍ معتدل إنما هي منهجٌ ومطلبٌ توجبه أمانة البحث العلمي. فلاينبغي للباحث في مثل هذه البحوث أو غيرها أن يعتقد ثم يستدل، وهذا معول هادم؛؛فقداخفقت بعض دراسات فقه اللغة المقارنة حين تناولته بنَفَسٍ عرقي،فالآريون يرون أنهم الأفضل والساميون كذلك ولن تكون حقيقة بهذاالمنهج.

وأمَّاكون العربية هي الأفضل لأنها لسان القرآن العظيم فهذا دليل قطعي كافٍ لنا نحن المسلمين ، ولكن من حق البحث العلمي علينا أن نبين لغير المسلمين، ولمن غاب عنه الدليل من المسلمين أن نورد أدلتنا من غير اختصاصها بالقرآن الكريم.

وحين وصلت إلى أدلةٍ لا يسع الباحثَ دفعُها أو التغافلُ عنها بدأت بتدوينها، ولا شك عندي أنَّ تركها مخافة الاتهام بالتحيز ضعفٌ في الشخصية العلمية للباحث، وإخلال بالأمانة.

لهذا رأيت أن أختم هذه النظرات بإشاراتٍ موجزة لماورد عند هؤلاء العلماء، وكان بدء الشواهد عند الرازي رحمه الله، الذي رأى أن يشير إلى أنَّ من الأسرار تمامَ العربية في حروفها مع النقص في غيرها، وأنَّ العرب وضعت لكل نوعٍ من أنواع الجراحات مسمى خاصًا به أغنى عن ذكر السلاح الذي وقعت فيه هذه الجراحات، وذكر أنَّ الحساب من شواهده على تفضيل العربية وشرح رأيه هذاشرحًا مفصلا، ثم ذكر أنَّ للعربية قانونا يُرجع إليه حتى لا يمحق عنها ويدرس ماحصل لغيرها من اللغات.

كذلك ذكر حمزة الأصفهاني رحمه الله في كتابه التنبيه عل حدوث التصحيف: أنّ العربية يتولد فيها النماء والزيادة على الضد من سائر اللغات؛ أما ابن جني رحمه الله فهو ابن بجدتها في هذا الشأن؛ حيث أطال الحديث في خصائصه، ومما قال إنَّ الأمر في هذه اللغة إلهام وتوفيقٌ من الله، ومما ورد عنده: ..."أنا نسأل علماء العربية ممن أصله أعجمي وقد تدرب بلغته قبل استعرابه ،عن حال اللغتين ،فلا يجمع بينهما بل لا يقبل السؤال عن ذلك، لبعده في نفسه ، وتقدم لطف العربية في رأيه وحسه"ثم ذكر في بابين الأول بعنوان:_تلاقي المعاني على اختلاف الأصول و المباني، والثاني_باب تصاقب الألفاظ لتعاقب المعاني. ذكر تفصيلا لما رآه من هذه الأسرار، أمَّا ابن فارس رحمه الله فقد عقد بابا في كتابه " الصاحبي يتأكد فيه للباحث جزمه على تفضيل العربية، جاء بعنوان: [باب في أنَّ اللغة العربية أفضل اللغات وأوسعها] ثم بسط أدلته على مذهبه، وأختم إيجازي عن آراء العلماء العرب بما ورد عند رمزي بعلبكي فأشير إلى أني حين قرأت ماذكره قلت:لا أجدني مبالغًا لواقتصرت على تلك النتائج في بيان فضل العربية

وأمَّا الاستشهاد بعلماء من غير العرب فمن هؤلاء بروكلمان، الذي قال عن العربية بعد مقارنتها مع لغات أخرى: "... في احتفاظها الكامل بالأصوات الأصلية الغنية ..." وقال أنطوان شبيتالر:...لقد احتفظت العربية الفصحى ، في ظاهرة التصرف الإعرابي..." وقال رفائيل بتي: " ...لا أعلم لغةً تقترب ـ ولو قليلاً ـ من اللغة العربية في قوتها البلاغية وقدرتها على اختراق وتجاوز المعارف الأدبية لتصل إلى العواطف وتطبعها بطابعها الخاص..." وأختم الإيجاز لآراء غير العرب بالإشارة إلى رأي ديفيد جستس: "فاللغة العربية، من حيث البنية لغةٌ مطردة ومصقولة بشكل غير معهود" وهذه الآراء تجدها مفصلة عند الحديث عن رأي كل شخصية من هؤلاء.ولعل في الاطلاع على مناهج النحاة القدامى في تفضيل العربية ما يرد على من طعن عليهم بأن تفضيلهم لم يكن مبنيًا على مقابلة العربية بلغات أخرى.

وأخيرًا أسأل الله أن يجعلني ممن اجتهد فأصاب،فأكرمه الله بالأجرين والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

١ ـ البيان والتبيين.

٢ـ العمدة . لا بن رشيق

٣ـ دراسات في اللغتين العربية والسريانية. للدكتور إبراهيم السامرائي.

٤ـ التحيز اللغوي وقضايا أخرى: للدكتور حمزة بن قبلان المزيني.

٥ـ فقه العربية المقارن دراسات في أصوات العربية وصرفها ونحوها على ضوء اللغات السامية تأليف الدكتور/ رمزي منير بعلبكي.

٦ـ الجمهرة: ابن دريد.

٧ـ دراسات في فقه العربية/ للدكتور صبحي الصالح.

٨ـ الخصائص لابن جني.

٩ـ إعجاز القرآن للباقلاني.

١٠ـ دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني.

١١ـ كتا الزينة في الكلمات الإسلامية العربية لأبي حاتم الرازي.

١٢ـ الإعجاز البلاغي . محمد محمد أبوموسى.

١٣ ـ التنبيه على حدوث التصحيف. حمزة بن الحسن الأصفهاني.

١٤ـ اللغة بين العقل والمغامرة. مصطفى مندور.

١٥ ـ الصاحبي.لابن فارس.

١٦ـ مقاييس اللغة .لابن فارس .

١٧ـ فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي.

١٨ـ أسرار العربيةزلعبد الرحمن الأنبا ري.

١٩ـ مقدمة ابن خلدون.

٢٠ـ في اللهجات العربية. إبراهيم أنيس

٢١ـ العبرية لهجة عربية عادية دراسة لغوية مقارنة بين اللغة العربية والعبرية سلامة سليم سلامة يوسف.

٢٢ـ اللسان والإنسان. مدخل إلى معرفة اللغة. الدكتور حسن ظاظا.

٢٣ـ فقه اللغة المقارن. الدكتور إبراهيم السامرائي.

٢٤ـ ظاهرة التأنيث بين اللغات السامية. الدكتور إسماعيل أحمد عمايرة.

٢٥ـ موسوعة الشعر العربي. اختارها وشرحها وقدم لها: مطاوع صفدي و إيليا حاوي، أشرف عليهاالدكتور خليل حاوي، التحقيق والتصحيح نصا ولغة ورواية : أحمد قدامة.

٢٦ـ فقه اللغات السامية . كارل بوكلمان.ترجمة رمضان عبد التواب.

٢٧ـ العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب: يوهان فك ترجمة رمضان عبد التواب..

٢٨ـ العقل العربي: رفائيل بتي.
٢٩ـ محاسن العربية في المرآة الغربية أودلالة الشكل في العربية في ضوء اللغات الأوربية تأليف/ ديفد جستس، ترجمة الدكتور/ حمزة بن قبلان المزيني.
٣٠ـ العين: للخليل بن أحمد.
٣١ـ فتاوى ابن تيمية.
٣٢ـ الاتقان للسيوطي.
٣٣ـ المزهر للسيوطي.
٣٤ـ تهذيب اللغة. للأزهري.
٣٥ـ إعراب القرآن. لأبي جعفر النحاس.